الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧١ — ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 171

Lundi - 12 - 10 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

ﺿ

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ رجب سنة ١٣٥٥ — ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

في العهد الجديد

يومـــان ....

قطعنى منذ طويل عن مواصلة الكتابة قواطع الأسى والمرض . وفى هذه الفترة الفاترة تقلبت على العين مشاهد ، وتعاقبت على الأذن أحاديث ، وتواردت على الذهن خواطر ؛ فكان المصرى الذى فى دمى ، والكاتب الذى فى طبعى ، والصحفى الذى فى همى ، يحاولون أن ينفعلوا على القلم كلما نجم فى الوطن حادثة ، أو جرى فى الشعور عاطفة ، أو بدا على (الرسالة) حاجة ؛ ولكن الجسد الموهون لا يستجيب لنشاط ، والفؤاد المحزون لا يهتز لأثر . وهل الدنيا إلا دنياك أنت ؟ تدوم فيها ما دامت فيك ، فاذا ما انعدمت فى نفسك انعدمت فى حسك ؛ وإذن لا يكون سرورها سرورك ، ولا حزنها حزنك ، ولا متاعها متاعك ؛ ماذا يفيدك الترياق بعد أن مات حبيبك مسموما ، وماذا تردُّ عليك مباهج الناس إذا بات قلبك مهموماً ؟

كنت وأنا فى الاسكندرية أقف على سياج الكرنيش ، أو أسير على رمال الساحل ، فأرى فيض الحياة يتدافع فى أمواج البحر وفى أفواج الناس ، وروعة الجمال تتجلى فى رواء الشباب

فى الشارع وألوان الأصيل فى السحب ومغرب الشمس فى الماء ، و إشراق الغبطة يلمع فى العيون القريرة وعلى الشفاه المفترّة ، وصفاء الوجود يشيع فى زمر المصطافين فيكون فى أُهُب الأطفال مرحا وفى قلوب الرجال فرحا وعلى مضاحك الغيد فتنة ، وأسمع لغة الفردوس المفقود من فمى آدم وحواء وقد اضطجعا عاريين على رمال الشاطئ بين وسوسة الشيطان وفحيح الأفعى ، وهديرَ الأمواج المتعاقبة منذ يومها الأول على سِيف البحر ، وقد خلطه الخيال الشاعر بهتفات القيصر وضحكات كليو بطرة ، وغماغمَ الهوى والشباب تَطَّاير إلى الآذان الخلية فتقع منها موقع النغم الساحر فى جوف الليل الساجى البعيد ، وأحاديثَ المفاوضة والمعاهدة والمعارضة تتشقق بين الجماعات فتكون فى الغالب حماسة من دلائل الصحة ، وفى النادر هذياناً من أعراض المرض . كنت أرى وأسمع كل أولئك وأنا فى وحشة الغريب و بلادة الذاهل ، كأنما انقطع التيار الروحى بينى و بين الناس ، فأنا مظلم وهم فى نور ، وساكن وهم فى حركة ، ونافر وهم وحدات متسقة فى نظام المجتمع ، وناشز وهم نغمات منسجمة فى نشيد الكون

* * *

يوم واحد من أيام الاسكندرية استطاع أن ينقلنى من عدمى إلى الوجود ، ويخرجنى من نفسى إلى الناس : ذلك يوم سفر المفاوضين المعاهدين إلى انجلترا ! فقد ازدهانى أن يتفاهم الحق والقوة ، ويتفق منطق القلم ومنطق السيف ، ويقتنع (المبرنطون) بأن وطننا لنا وحدنا ، وأن أصحاب (الامتياز) أصبحوا بشراً مثلنا ، فدخلت فى غمار الشعب الهاتف ، وآثرت زحمة الدهماء ووقدة الشمس على مخالطة الأقدار الكبيرة والأحلام الرصينة فى ظلال السرادق ، وركبت زورقا من زوارق الميناء فى جمهرة من الشباب الفقراء الذين يجهلون معانى (النيابة) والوظيفة والجاه ، فيشاركون فى المظاهرات لأنها صرخة الوطن ، ويهتفون للزعيم لأنه ممثل الأمة ، ويصفقون للمعاهدة لأنها صك التحرر

سار بنا الزورق الراقص الشادى بين عشرات من الزوارق المزدانة المهللة حتى حاذينا (النيل) ؛ والنيل قطعة من الوطن المحبوب تجمّع فيها أمله المنتشر ، وبدأ عليها تاريخه الجديد ، ستقطع هذا الخضم المزبد إلى الشاطئ البعيد عليها صداقة مصر لانجلترة ، يقدمها وفدها الأمين إلى الذين عرفوه بعد انكار وسالموه بعد حرب ؛ وما كانت سياسته فى الأول إلا سياسته فى الآخر لولا سوء الفهم وسوء الظن وسوء الضمير . فلما انحسر لثام الرياء عن الأوجه المغشوشة فينا وفيهم ، خلص منطق النحاس إلى عقل إيدن ، واقتحمت النيل الوادعة مرابض الأسطول

تحركت الباخرة المزهوة الفخور بعد حفلة الوداع بين عزف الموسيقى وقصف المدافع وصفير البواخر وتصفيق المودعين وهتاف المتفرجين وزغردة النساء ؛ فكان من ذلك كله نشيد وطنى عجيب التأليف بديع التلحين سحرى الايقاع عبر بهذه القوة عن الشكر لقادته ، والخير لحليفته ، والاطمئنان إلى مستقبله

كان اعتماد الجمهور فى التنفيس عن حماسته المضطرمة على الضرب بالأرجل ، والتصدية بالأيدى ، والتلويح بالأذرع ، وما يلازم هذا من اضطراب الحركة وفقدان الاتزان وشيوع الفوضى ، وانتقال أثر ذلك كله إلى الزورق ! فلو كان للشعب شعراء وموسيقيون : كما كان له زعماء وصحفيون ، فوضعوا له الأناشيد التى تعبر عن عواطفه فى وحدة ، وتهيمن على مواقفه فى نظام ، لما تعرضنا مراراً للغرق ! ! !

على أن الغرق لم يقع فى حسابى وأظنه لم يقع فى حساب أحد ، فقد كان فُلكنا المتواضع يجرى تحت (النيل) الباذخة كأنه الفرخ الوليد تحت جناح النسر ؛ عيوننا ترمق الزعيم الجليل وصحبه فلا تكاد تطرف ، وقلوبنا تنتشر دعاء ورجاء فلا تكاد تتماسك ، وألسنتنا تضطرب فى سيل من الهتاف فلا تكاد تسكن ، وفُلكنا المجنون فى يد القدر ، يميل و يعتدل ، ويجور ويهتدى ، وقد نسينا من روعة الموقف أننا فيه

* * *

يومئذ شعرت بأنى جزء من كل وفرد من مجموع ، وأدركت أن المشاعر المشتركة كالدين والوطنية هى أوثق روابط الألفة ، وأن المشاعر المختصة كنوازى الهوى ونوازع « البلاج » هى أقرب السبل إلى الفرقة

هذا يوم ؛ أما الآخر فله مقال آخر ! ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود !

احمد حسن الزيات

سر القبعـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وحدثني صاحب سر (م) باشا ، قال : نَجَمَتْ في مصر حركةٌ بِعَقِب أيام البدعة التركية حين لم تبق لشيء هناك قاعدةٌ إلا القاعدةَ الواحدةَ التي تقررها المشانق ... فمن أبى أن يخلع العمامةَ عن رأسه خلعوا رأسه ، ومن قال (لا) انقلبت (لا) هذه مشنقةً فمُلِّق فيها

وكانت فكرةُ اتخاذ القبَّعة في تركيا غطاءً للرأس قد جاءت بعد نزَعاتٍ من مثلِها كما يجيء الحذاءُ في آخر ما يلبس اللابس ، فلم يشكَّ أحدٌ أنها ليست قبَّعةً على الرأس أكثر مما هي طريقةٌ لتربية الرأس المسلم تربيةً جديدةً ليس فيها ركعةٌ ولا سَجْدة ؛ وإلا فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزَّنجي والهمَجي ، وعلى رأس الأبله والمجنون ، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض ، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه ، ولا زعم أحدٌ أنها أكملت العقلَ الناقص أو ردَّت العقل الذاهب ، أو انقلبت آلةً لحل مشكلات الرأس البليد ، أو غَصَبَت الطبيعَة شيئاً وقالت هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة

وقد احتجُّوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجهَ إلا المدنية ، ولا يعرف المدنية إلا مدنيةَ أوربا ، فهو يَمْتَثِلُها كما هي في حسناتها وسيئاتها ، وما يَحِلُّ وما يَحْرُم ، وما يكون في حاجة اليه وما يكون في غنيً عنه ؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عُوراً بالطبيعة لجعل هو قومه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين ..

نعم إنها حجةٌ تامة لولا نقصٌ قليل في البرهان يمكن تلافيه باخراج طبعة جديدة من كتب الفُتوح العثمانيــة يظهر فيها الخلفاءُ العظامُ والأبطالُ المغاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبَّعات ليُشبهوا الأوربيين ....

* * *

قال صاحب السر : وتهوَّر في هذه الضلالة رَهْطٌ من قومنا ، وأخذوا يدعون إلى التقبُّع في مصر احتذاءً لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا رحمه الله يطلب رأيه ، فكان رأْيُه (لا) بعدَّ الأَلِف ... وعهد إليَّ بعضهم أن أسأل الباشا فقال :

ويحهم ! ألا يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلدين للتقليد نفسه ؟ إن هذه بدعةٌ تنحطُّ عندنا درجةً عن الأصل فكأنها بدعتان . ثم ضحك الباشا وقال : كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخل نافعٌ للصفراء ، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله : ازرع لي بصلاً بخل .... هكذا يريدون من القبعات أن تخرج لهم تُركا بأوربيين

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة ، بل هي كلمة سبٍّ للعرب وردٌّ على الاسلام ، ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تظهرها واضحةً بينةً فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحده ، وهي اعلان سياسيٌّ بالمناوأة والمخالفةِ والانحراف عنا واطِّراحِنا ، فان الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها ؛ فبهذا انفتح لهم بابُ الخروج في القبعة دون غيرها مما يجرى فيه التقليد أو يُبدِعُه الابتكار ؛ وإلا فأى سر في هذه القبعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين .... ؟

ههنا سيفٌ أراد أن يكون مِقَصاً ، فعمل ما يعمل الحسامُ البتَّار فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه ، ثم صنع ما يصنع المقصُّ فماذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطال والخياطون جميعاً

أَكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث في التقليد الأعمى وألا يحيا الشرقُ إلا مستعبَداً ينتظر في كل أموره من يقول له : اشْرَعْ لي . . . إن بحثْنا فلنبحث في زيٍّ جديد نتميَّز به فتكون القُوى الكامنة فينا وفي طبيعــة أرضنا وجوِّنا هي التي اخترعت لظاهرها ما يجعله ظاهرَها ، كما يُخرج زَوْرُ الأسد لِبْدةَ الأسد غايةً في المنفعة والجمال والملاءمة

أنا ألبس ما شئت ولكني عند القبَّعة أجد حدًّا تقفُ إليه ذاتيتي الفرديةُ فلا أرى ثَمَّةَ موضعَ انفراد ولكن موضع مشاكلة ، ولا أعرف صفةَ منفعةٍ لي بل صفــةَ حقيقةٍ مني ، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوعُ الى الجنس والواحد الى الجماعة . وما دمت مسلماً أصلي وأركع وأسجد فالقبعة نفسها تقول لي دعني فلستُ لك

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر إنما اشتقُّوها من

المصدر نفس المصدر الذى يخرج منه التهتك فى النساء ، وكلاهما مَنزَعٌ من المخالفة ، وكلاهما ضِدٌّ من صفةٍ اجتماعية تقوم بها فضيلةٌ شرقية عامة . وليس يعدم قائل وجهاً من القول فى تزيين القبعة ولا مذهباً من الرأى فى الاحتجاج لها ، غير أن المذاهب الفلسفية لا يُعجزها أن تقيم لك البرهانَ جَدَلاً محضاً على أن حيـاء المرأة وعفتها إن هما إلا رذيلتان فى الفن . . . وان هما إلا مرض وضعف ، وإن هما إلا كَيت وكيت ، ثم تنتهى الفاسفة الى عدّهما من البلاهة والغفلة ، وما الغفلة والبلاهةُ إلا أن تريدَ فلسفةٌ من فلسفات الدنيا أن تُقْحِمَ فى كتاب الصلاة مثلاً فصلاً فى ... فى ... فى الدّعارة

لا يهولنَّك ما أقرر لك من أن القبعة الأوربيـة على رأس المسلم المصرى تهتكٌ أخلاقىٌ أو سياسىٌ أو دينىٌ أو من هذه كلها معاً ، فانك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عقدها ، وبعد أن قاربت الحرية العصرية بين النقائض حتى كادت تختلط الحدود اللغوية . فحرية المنفعة مثلا تجعل الصادقَ والكاذب بمعنى واحد ، فلا يقال إلا أنه وجد منفعته فصـدق ، ووجد منفعته فكذب ؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرّق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهلُ القدماء وفضيلةُ القدماء ودين القدماء . وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين هى أيضاً فى المعجم اللغوى الفلسفى الجديد مترادفات لمعنى واحد هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة

ومتى أزيلت الحدودُ بين المعانى كان طبيعياً أن يلتبسَ شىءٌ بشىء وأن يحلَّ معنى فى موضع معنى غيره ، وأصبح الباطلُ باطلا بسببٍ وحقّا بسبب آخر ، فلا يحكم الناسَ إلا مجموعة من الاخلاق المتنافرة تجعل كلَّ حقيقة فى الأرض شبهةً مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونَزَعاته ، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلا مسلحاً ، فيكْسِبون القانونَ بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يُعيدَ للوحشية الانسانية ، وتدفع هذه الوحشية أن تُعيدَ له

ومن اختلاط الحدود تجىء القبعة على رأس المسلم ، وماهى إلا حد يطمس حداً ، وفكرة تهزم فكرة ، ورذيلة تقول لفضيلة : هأنذى قد جئت فاذهبى

ما هو الأكبرُ من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الصّغر ، وما هو الأصغر من شيئين لا حـدَّ بينهما لتعيين الكبر ؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع له فى التمييز ولا مقرَّ له فى العُرف ولا فصلَ به فى العادة ؛ ومن هنا كان الدينُ عند أقوام أكبرَ كلمـات الانسانية فى عامة لغاتها وأملأها بالمعنى ، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى ؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماع الانسانى وهو محدود بغاياته العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حدَّ له ، وكأنه معنى مُتوهَّم لا وجود له إلا فى أحرف كلمته

فجماعة القبعة لا يرون لأنفسهم حداً يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شرقيتنا ، وقد مرقوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون فى زيّنا الوطنى ما فيه من قوة السر الخفى الذى يُلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعانى أسلافنا

وأنا أعرف أن منا قوماً يرى أحدُهم فى ظن نفسه أنه قانون من قوانين التطور ؛ فهو فيما يُلابسُه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس بل واحدٌ من النواميس . . . ومن هنا الثقَلُ والدعوى الفارغةُ وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى . وإنه لحقٌّ أن يكون بعضُ الناس أنبياء ، ولـكن أقبح ما فى الباطل أن يظن كل إنسان نفسه نبيًّا

واعلم أن كثيراً مما يزينونه للشرق من رذائل المدنية الأوربية إن هو إلا منطق شهوات فى جملته ، ولقد تسمعُ الجائعَ يتكلم عن الطعام فترى كلاماً تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدها غيرُ الجائع إلا حماقةَ ساعتها

(طنطا) 

كل شيء بخير سيدتى المركيزة!

للأستاذ عبد الحليم الجندى

فى فاتحة الصيف جلسنا عند سفح الهرم نستمع إلى آخر أناشيد باريس عاصمة فرنسا، التى يقول عنها أبناؤها إن كل شيء فيها ينتهى بأغنية، والتى يُزلفها «كوت» إلى الهاوية فى سرعة الطائرات التى يبعث بها إلى مدريد، والتى يسوقها «توريز دجوهر» إلى جهنم الحمراء: أى إلى الشيوعية، فأدار لنا «الأستاذ» تلك الأنشودة البديعة الواردة أخيراً:

كل شيء بخير: سيدتى المركيزة: المتاع سرق
وكل شيء بخير: سيدتى المركيزة: والقصر يحترق
وكل شيء بخير: سيدتى المركيزة

استمعنا، واستمتعنا! ثم نسينا — طبعا — ورجعنا؛ حتى إذا كنت فى أوائل الشهر الماضى برأس البر طفرت تلك الأغنية إلى ذهنى وإلى فمى فطفقت أرددها، فى المساء وفى الصباح، وعلى الشط وفى السامر

***

نحن الآن فى مجلس خاص، فى الكازينو، على قيد أمتار من اللسان، حيث العذب الفرات والملح الأجاج يلتقيان؛ وهؤلاء أكبر الأساتذة فى أقدم جامعة فى العالم، وفى أحدث جامعة فى العالم، أخذوا فى خلوتهم البديعة بأطراف الأحاديث، وسالت تلك القرائح السامية بخواطر عالية فى الحضارة والاجتماع

الأستاذ الكبير — فى جامعتنا المصرية — يعالج ترجمة فصحى لكلمة «المودة» La mode ويعرض على الفقيهين الكبيرين كلمة بديعة بارعة، فتأخذهما النشوة ويطربان؛ والأستاذ يقص علينا حديث رحلته الأخيرة إلى الشام، تلك الأمة المجاهدة فى الحرية، المجاهدة فى الأدب، المجاهدة فى الاقتصاد... وبنوها الذين ضربوا لنا الأمثال فى كل ضرب! الذين حدثوه عن مصر عما لا يعرفه أبناء مصر! ... لقد كان أروع ما راعه فى ذلك القطر الشقيق أنه لم يجد فوارق بين الطبقات؛ وعلة ذلك عنده أن المروءة أعمق أصولاً عند إخواننا، وأن المروءة معناها النخوة والمساواة؛ وعلته أيضاً أن التفاوت فى المرتبات ليس هائلاً؛ وأخيرا أن ليس ثمة أسرات تضرب فى مظاهر الأبهة كأنها تضرب برَوْقَين فى السماء...

أما هنا — وانحدر الحديث الى من هنا. قال قائل: هنا تجد ستة عشر مليوناً ولا تجد ستة عشر رجلاً ممن ينفذون الى الأعماق! قلت: إنى أطلق على حضارتنا الحالية: «حضارة السندوتش»؛ فالناس يمرون بمحال «السندوتش» ليطعموا طعامهم على وجه الاستعجال، كما يعبر رجال القانون، ولا يضيرهم بعد ذلك أن تتأذى معداتهم وأعصابهم ما داموا قد تناولوا وجبتهم بحال من الأحوال ... ! ولقد طغت تلك المحال على المطعم الأصيل فكادت تجليه عن مكانه. أنظر حيثما شئت تجد أنوارا لامعة فى الأرض تكاد تباهى كواكب السماء! إنها ليست أنوار معهد ولا مستشفى، ولكنها أنوار السينما والسندوتش. وكلما ذهبت الفتاة الى الطبيب أو شكا الطالب الى أستاذه رجاها الطبيب أو الأستاذ أن يقلعا، أو يقللا، من ارتياد السينما ومن ازدراد السندوتش ...

وكما قضى السندوتش على المطعم تكاد تقضى المذكرات فى الجامعة على المراجع، والخليلات على الحليلات، والمسكنات السياسية على الاصلاح العميق، وشهوات الساعة على واجب التاريخ ... والأدب الرخيص على الأدب العالى ... والمجلات الخفيفة على الكتب ... ولنفس الأسباب .. وفى عبارة موجزة: لكأن هذا الجيل ليس من مصر! وكأنما هو يقضى منها وطراً، أو كأنه فيها عابر سبيل ....

وتطرق الحديث — حتما — الى البلاج، الى الماء، والى فنون الماء، وما أدراك ما فنون الماء: العراء، والاغراء، واستهتار الرجال وتبذل النساء! وخرج كل منا من الحديث غضبان أسفا

ومع ذلك فالدولاب يسير ... وظواهر الأشياء لا تنبئ إلا عن خير الأشياء ...

وكل شيء بخير: سيدتى المركيزة! المتاع سرق
وكل شيء بخير: سيدتى المركيزة! والقصر يحترق
وكل شيء بخير: سيدتى المركيزة!

***

وانفرط العقد، وانصرم الليل، وأرسلت الشمس شعاعها فى الصباح أصفر وهاجاً نافذا فى أعماق اليم كأنه سهم ذهبى بديع يتوهج فى طبقات الأفق، والتقى الصديقان بعد عشرة أعوام

وبعد رحلة طويلة فى أوربا ، وبعد أن (كانا يظنان كل الظن أنْ لا تلاقيا) ... وانطلقا على الشاطئ

قال الذى رجع من أوربا : أرأيت أنى وجدت فى مصر ما لم أجد فى أوربا ؟ قال له صاحبه : أنسيت أن إسماعيل قد جعلها قطعة من أوربا ؟ ومنذ ستين عاماً ! قال إنها كلمة تعدل كل ديون اسماعيل ، فهو كما أفقر الأمة فى أموالها أفقرها بهذا الذى ظن أنه صيّرها إليه ... إنك لا ترى على هذا الشاطئ إلا أقبح القبيح الذى تنكره أوروبا .. لكأن الناس ياصديقى قد جاءوا إليه ليتعروا فيه لا ليصطافوا عنده ....

وانطلقا حتى بلغا مجمع البحرين قال : انظر الى النيل يقذف بنفسه فى صميم البحر الأبيض ؛ إنه ينطلق كالقذيفة فى البحر .. وترى ماءه الأحمر أو الأسمر ، بل تستطيع أن تشرب به عذباً على بعد أميال من الشاطئ ؛ ولكنك بعد أميال أخرى لا تراه ؛ ويفنى اللون الأسمر فى اللون الأزرق ، والماء العذب فى الماء الملح ؛ وهكذا نحن نقذف بأنفسنا فى ذلك الخضم الأوربى ولكن مع فارق ضخم : هو أن الماء يسع الماء ، أما الحضارة الأخرى فانها تلفظنا ...

وانطلقا . . . . فهما الآن عند الكازينو : حيث الفتيات يواعدن الفتيان جهرة ... ! لكأنه يوم الزينة ، وكأن الناس قد حُشروا ضحى .. ! لا ليشهدوا سحرة فرعون ولا آية موسى ، ولكن ليشهدوا السحر الحرام .. فيرى الأناث الرجال المتأنثين ، ويرى الرجال النساء المسترجلات .... وإلا فلماذا لا يحتشد ذلك الجمع على الشاطئ الذى يبدأ من بور سعيد وينتهى عند البرلس بمصيف آخر ؟ لماذا لا يحتشد ذلك الجمع إلا أمام الكازينو ؟ ارجع البصر يا صديقى إلى ذلك الحوت المستلقى على الشاطئ ! ثم ارجع البصر كرتين ، هنالك ، تلك الفتاة التى وصفها النقيب (سانت أوبان) فى مرافعته عن فكتور مرجريت عندما قدموه للمحاكمة من جراء (لا جارسون) — تلك الرواية التى صارت بعد خمسة عشر عاما من أعف الروايات !! — قال سنت أوبان (.. أين تلك البطة المسربلة بالبياض وهى تقسم يمين الطاعة لزوجها فى المعبد من هذه الفتاة العارية المتمددة على رمال الشاطئ تعرض جسدها على الطبيعة تستقبل أشعة الشمس حقاً ولكنها تستقبل أيضاً تلك الأشعة النارية المسلطة عليها من عيون الناظرين ...)

وانطلقا نحو علم أخضر يتراءى على البعد . قال أحدهما إنك ترهقنى عسرا إذا سرت بى إلى حيث هذا العلم ؛ إننى أراه فوق الشاطئ الذى نحن عليه كطربوش الميت على الآلة الحدباء التى تحمله ؛ وهو من مجد هذا الشعب المنتشر على هذا الشاطئ كالنشيد الذى أجازوه مائة جنيه لأنه خالٍ من المعنى ، خالٍ من الاحساس ، ومع ذلك جعلوه نشيدنا القوى ! ! ... إننى سمعت الأنشودة التى غنيتها لك فى المرقص ، ولكن المرقص يحمارّ خجلاً ، ويتفصد جبينه عرقاً ، إذا وقف أزواجه أمام هذا الشاطئ ... إن الشباب يتعلم ليتعطل ، والعامل يعمل ليجوع ، والاقتصاد المصرى يزخر كتيار النيل ليصب فى البحر الذى يجمعنا بأوربا ... أفهذا الشباب الناهض ، بل الرابض ، هو الذى سيبنى الأسطول البحرى ، والأسطول الجوى ، ويقطع الصحراء راجلاً إلى الحدود ... !! ومع هذا فقد شرع له أساتذة الجيل أسوأ شرعة عندما أعطوا جائزة لذلك الباحث الذى شرط على رجل القرن العشرين أن يكون « وصوليا » لكى ينجح ... ! ! فاذا سألت عن هؤلاء الأساتذة ، فاعلم أن منهم صاحب « حياة محمد » ، وأن منهم أيضاً تلميذ محمد عبده ! !

ومع ذلك أيضاً ... فكل شىء بخير

كل شىء بخير : سيدتى المركيزة ، المتاع سرق ، والقصر يحترق ، وكل شىء بخير ...

* * *

وكنا كلما بعدنا عن الكازينو هدأ الموج وسكن البحر ؛ قلت : ما للموج لا يرغى ولا يزبد إلا حيث هؤلاء الناس يجتمعون ؟ فأجاب صديقى : «إننى سمعت إحداهن تقول لأختها : إن الموج يتدافع نحوها كما يتدافع الهوى أو الهواء ، تارة فى عنف ، وتارة على استحياء . فردت عليها الفاجرة تقول : اسمعى ! إننى سأذيع لك السر الذى بينى وبينه : « إنه يتظاهر أمام الناس بأنه يلاطم الشط ولكنه فى الحقيقة يقبل قدمى .. وهأنذى أركض بهما فى ذلك المغتسل البارد .. وأسلمهما للقبل »

وكنا قد دنونا من السارية ، ثم وقفنا تحت العلم ، فيا لتوفيق الله سبحانه ! إنه علم فرق الجوالة من شباب الجامعة الأشداء جاءوا يضربون خيامهم على هذا الشاطىء ويضربون لفتيانه المثل العالى .. وجاءوا ليبعثوا فينا الأمل الذى قضى أو كاد

ورجعنا فى العاشرة صباحا ، وكان الراديو يجاجل فى الآفاق جميعها بآيات الله العلى ! قلت يا صديقى بل هنا الأمل فلنراجع البرنامج !

عبد الحليم الجندى المحامى

رواية ورواية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قال محدثي :

« كنت في ذلك الوقت غارقاً في دروسي ، فقد رسبت ، كما تعلم ، في الامتحان وأبيح التقدم له مرة أخرى ، فعدت من البلد ، ونزلت على أقربائي هؤلاء ، وشرعت أستعد لأداء الامتحان في المواد التي أخفقت فيها ، وكانت أربعاً ، تضاف إليها ثلاث أخرى اخترتها طمعاً في «المجموع» فعكفت على دروسي وأقبلت على تحصيلها . وما أكثر ما كنت أفني ليلي بالسهر في مراجعتها فكانت « سميحة » تزجرني عن ذلك وتقول : إن سهر الليل يهد القوى ويكثف العقل ، وإن عمل النهار أوفر عائدة وأرفق بالجسم والعقل . وكانت هي قد فازت « بالبكالوريا » ولم تتلكأ عندها مثلي ووثبت منها الى كلية الطب . ولم تكن قد قضت فيها غير عام واحد ولكنها — مذ التحقت بها — أصبحت تتحدث عن الصحة والعلل وطبابها كأنها جالينوس . وكنت أحبها غير أن دروسي شغلتني عنها ، وكانت مي في البيت فلا داعي للشعور بالوحشة وفراغ الدنيا حول المرء . وكنت إذا تعبت أقوم فأتمشى في البيت وأدور بالغرف — فما ثم غيرها — وقد ألبث شيئاً عند سميحة وهي مستلقية على سريرها — أو على الأصح نائمة كقاعدة فوقه — وفي يدها قصة تزجي بها الفراغ وكانت تحب الروايات البوليسية مثلي فلا يفوتها شيء مما ينقل الى العربية في هذا الباب . وأنا مثلها وعسى أن يكون هذا هو الذي دهورني ، ولكنه لم يدهورها فلا أدري ما علة إخفاقي وسر نجاحها ؟ . لا تعترض !! إني أعرف ما تريد أن تقول ، ولهذا أقول لك إنها ليست أذكى مني وإن كان لا يسعني إلا أن أعترف أنها أمضى عزماً وأقوى إرادة وأقوم طريقاً الى غايتها حين تكون لها غاية . وما أظن بها إلا أنها أرادت أن أعشقها فعشقتها ، ولكن الذي يحيرني أنها تأبى علي راحة القلب واطمئنان البال ، ولا تنفك تظهر لي النفور من هذا الحب والكراهة له والزهد فيه . وأحسب أن هذه هي طباع المرأة ، فهي تعني « أريد » حين تقول « لا أريد » .. ما علينا .. انتهى الامتحان واستطعت أن أنام مرتاحاً ووسعني أن أدير عيني فيما حولي وأن أجمل لقلبي حظاً بعد طول الحرمان ، ولكن سميحة كانت تنفيني عن البيت وتقول لي إني أتلفت صحتي فهي في حاجة الى الهواء الطلق ؛ وكان هذا صحيحاً لا شك فيه ، ولكن هذه « الأستاذية » التي كانت تتكلفها معي كانت تثقل على نفسي . وكانت تخرج معي أحياناً ولكن كما يخرج المعلم مع تلاميذه الصغار الى حدائق الحيوانات أو مرصد حلوان ، فلا أشعر أني مع الفتاة التي أحبها ، ولا أجد متعة أستفيدها من هذه الرحلات التي يطيب فيها الغزل عادة والتي كنت أمني بها نفسي وأحلم . وقد قلت لها مرة ونحن في « حديقة الأورمان » :

« يا ستي ما هذا الحال المقلوب ؟ »

قالت : « أي حال ؟ . مالك ؟ . »

قلت : « لكأني أسير مع شرطي ! »

فلم تضحك — وكنت أظنها ستفعل — فغاظني ذلك فقلت : « أليس حالاً مقلوباً أن نضحك في المطبخ ونعبس في الحديقة الحالية ؟ ؟ »

فسألتني مستغربة : « المطبخ ؟؟ متى ضحكنا في المطبخ ؟ »

فقلت لها بضجر : « لا تكوني حرفية ! ! إنما أعني البيت وأنت تعرفين ما أعني فلا تغالطي »

قالت : « إن البيت ليس من مرادفاته المطبخ »

فسكت ولم أقل شيئاً — وماذا عسى أن أقول ؟ — »

وحدث مرة أخرى وكنا معاً — على ما يبدو للناس ، أما في الحقيقة فقد كان كل منا وحده — فضاق صدري ، فقلت أرفه عن نفسي بالغناء ، فرفعت صوتي وانطلقت أغني :

« يا بت انا بدي أبوسك   بس أبوسك !
واطرب وأحظى بكئوسك   رقي شوية ! »

فلم يرعني إلا قولها : « ليس أضر من الخمر ولا أقتل »

فقلت : « يا ستي إن المراد بالكؤوس هنا الشفاه الرقيقة ، وبالخمر الريق العذب »

فقالت : « إخص ! ... »

فقلت مندهشاً : « إخص ؟ ؟ »

قالت : « إخص ! ... »

قلت : « طيب ! ... »

وهذا يريك من أى معدن صيغت سميحة ، ولكنى على هذا كنت أحبها حباً عظيما لأنى كنت واثقاً أن هذه قشرة نشرتها كلية الطب على صفحة معدنها الصافى ، وستزول ولا شك مع الأيام

وصح ظنى ، فقد كانت كما قلت لك تحب الروايات البوليسية حباً جماً ، وكان قد صدر منها أخيراً رواية طويلة فى مجلدين اسمها « السم فى الدسم » ، فاشتريتهما وغرقت فيهما — أعنى فى المجلد الأول — واستغنيت بهما عن هذه النزهات والرحلات التى لم أكن أفيد منها أى متعة ، بل كنت أفيد منها التنغيص

وكنت أخفيهما عن عينها مخافة أن تسطو عليهما ، وكانت الرواية قد نفدت بسرعة ، فلا سبيل إلى نسخة أخرى غير التى كانت معى إذا هى ضاعت ، فلا عجب إذا كنت قد حرصت عليها وضننت بها . ولا أكتمك أن نفسى حدثتنى أن أعذبها — أعنى سميحة — بعد أن أفرغ من الرواية وأعرف سر الجريمة ، وذلك بأن أخايلها بها وأحرك نفسها لها ولا أمكنها منها ، ولماذا لا أعذبها كما عذبتنى ؟ ثم إن تعذيب المرأة أحياناً لا يكون من القسوة ، فقد وجدت على ضآلة تجربتى وقلة خبرتى أنها تستحلى هذا — أعنى المكايدة إذا لم تخرج إلى الايلام ولم تجاوز الحدود المعقولة ... ومع ذلك من يدرى ؟ فلعلها تستعذب العذاب بلا قيد أو شرط ... لا أدرى !

وفى إحدى الليالى عدت من مأدبة كنت مدعواً اليها مع لفيف من إخوانى وأندادى ، أقيمت لتوديع واحد منا مسافر إلى انجلترا لاتمام تعليمه هناك ، فلما رجعت إلى البيت دخلت غرفتى وأنا أمنى النفس بساعة جميلة أقضيها مع الروائى البارع الذى أبدع ذهنه صوغ هذه القصة المتعة ، وإذا بها قد اختفت ..

وكنت قد دسستها بين المرتبتين المطروحتين على السرير ، فان أقاربى هؤلاء يخافون الفيران والصراصير ، فيكدسون المراتب على السرير فتعلو جدا ويحتاج المرء إلى كرسى يصعد عليه . ولم أشك فى أن سميحة سرقت روايتى ، وأنها الآن تنعم بها فى سريرها على عادتها حين تريد القراءة . وكانت الساعة الحادية عشرة فقدرت أن تكون قد قطعت مرحلة طويلة وبلغت العقدة التى لا يمكن أن يستريح القلب إذا لم يقف على حلها ، فمضيت إلى غرفتها ونقرت ودخلت ، فقالت : « خير إن شاء الله ! » ، فقلت وأنا أرفع نفسى لأجلس على حرف السرير — فانه عال كما قلت لك —

« أوه لا شىء ... إنما جئت لأتحدث معك قليلاً »

قالت بجفوة : « ليس هذا وقت الحديث فقم من فضلك »

قلت : « بل قولى إنك تقرئين رواية (السم فى الدسم) .. أليست بديعة ؟ »

فاطمأنت لظنها أنى فرغت منها ، فنى وسعها الآن أن تمضى فى قراءتها من غير أن تخاف أن أقطع عليها — بالسرقة أو الخطف — حلاوة المتعة ، ورأيت أمارات هذا الاطمئنان فى وجهها ففرحت فان الانتقام يكون أوقع إذا خيب أملاً قوياً ، وأطلتُ الحديث فسئمَت واشتهت أن تعود إلى روايتها ، وقالت : « هل تنوى أن تنام هنا الليلة ؟ إذا كنت تنوى هذا فقل لى لأنتقل إلى غرفة أخرى ! »

ونهضتْ عن السرير ومضت إلى الشرفة ففتحتها وأطلت منها ، فلمحت الرواية تحت الوسادة فما أسرع ما دسستها فى جيبى ، ثم قلت وأنا أمضى إلى الباب : « إذا كنت تكرهين وجودى إلى هذا الحد ، فانى ذاهب إلى حيث ... »

فقالت من الشرفة : « ألفت » وضحكت

فلم يسؤنى ذلك ، فان الذى يضحك أخيرا يضحك كثيراً كما يقول الانجليز على ما حدثنا معلمنا ؛ وأوصدت باب غرفتى بالمفتاح ، واستوثقت منه بهزه مراراً وبقوة لأرى هل يستطيع محنق مغيظ أن يكسره ، ثم قعدت على كرسى وراء الباب ، ورحت أنتظر

ولم يطل انتظارى ، فقد اهتز الباب فصحت وأنا أتكلف الفزع : « من ؟ »

قالت : « افتح من فضلك ! »

قلت : « إذا كنت تنوين أن تقضى الليل فى هذه الغرفة فقولى لى لأنتقل إلى سواها »

قالت : « لا تكن فظاً ... لماذا سرقت الرواية ؟ »

قلت « بضاعتنا ردت إلينا .. هل عرفت من القاتل .. لعلك تظنين أنه « رودلف » . كما كان المحققون يتوهمون ؟ كلا يا فتاتى ! ... إن السر أعمق وأخفى من ذلك وإن الروائى لبارع حقاً .. والآن أرجو أن تذهبى فقد بلغت الفصل الذى يشقى صبر

المرء إذا لم يتمه فى مثل لمح البصر .. إذهبى ونامى يا حبيبتى واحلمى «بالصينى» فان له لدخلاً فى الأمر وعلاقة بالسر »

قالت : « صحيح ؟ . »

قلت : « طبعاً .. لقد عرفت ذلك منذ دقيقة واحدة »

قالت : « ألا تخبرنى من القاتل ؟ ؟ إنى أكاد أجن ولا أستطيع أن أنام حتى أعرف هذا ، فكن لطيفاً واخبرنى »

قلت : « حتى تكونى أنت لطيفة »

قالت : « ما ذا تطلب قل وخذ وهات الرواية »

قلت : «الرواية كلها ؟؟ لا !. إن ثمنها غال جداً ... على أنى بعد التفكير العميق أرى أن المساومة لا تليق ولهذا أرفض كل ما تعرضينه كائناً ما كان »

قالت برقة : « ترفض أن تعلم أنى . . . أنى . . . أنى . . . أحبك ؟ » (بصوت خافت)

فانتفضت واقفاً وصحت « إيه ؟ »

قالت : « لا تصح هكذا . . »

ووضعت فمها فى ثقب المفتاح وهمست : « يا عبيط . . إنى أحبك .. هل تفهم ؟ . وأنوى أن أتزوجك على رغم أنفك ؟ . . فنضع لهذه المنافسة السخيفة حداً ونستطيع حينئذ أن نقرأ الروايات البوليسية كلهامعاً .. تقرأ لى فأسمع .. وأقرأ لك فتسمع »

فاعترضت وقلت : « ولكنى قد أحب أن أسرع وأقلب بضع صفحات ليطمئن قلبى ، ولا تحبين أنت ذلك فيقع الخلاف »

قالت : «كلا .. على كل حال .. سأكون واثقة أن الرواية باقية فى البيت فأنا أتعهد لك أن أقدمك على نفسى وأتركك تسرع أو تبطئ كما تحب .. وحسبى أن تترك لى فتات المائدة »

فأثر فى نفسى هذا الاخلاص والايثار .. وأى إيثار أعظم ، وأى تضحية أكبر ، من أن تتركنى أقرأ — أو أتم — رواية بوليسية قبلها ؟ ؟ هذا اخلاص وإيثار لم يسمع — أو على الأقل لم أسمع أنا — بمثلهما . فلا عجب إذا كنت قد فتحت الباب بسرعة وفتحت مع الباب ذراعىّ لها فدخلت فى ذراعى قبل أن تدخل من الباب

وكان لا بد أن أجزيها إخلاصاً باخلاص ، وإيثاراً بايثار ، فدفعت إليها الرواية وقلت : « إقرئيها قبلى يا نور العين »

ابراهيم عبد القادر المازنى

صور سياحة

٣ ـ معاهد باريس

الحى الجامعى والمدينة الجامعية ومسجد باريس

بقلم سائح متجول

لا ريب أن ما تتمتع به فرنسا وباريس فى مصر من حب وتقدير يرجع قبل كل شىء إلى غرسها العلمى والثقافى ؛ وإذا كان هذا الغرس يذبل اليوم ويتضاءل لأن عوامل كثيرة جديدة دخلت فى الثقافة المصرية الحديثة ، فان الثقافة والآداب الفرنسية ما زالت تحتفظ فى مصر بكثير من جاذبيتها وسحرها

لقد تلقى كثير من المصريين علومهم بفرنسا ، وما زالوا لثقافتها رسلاً مخلصين

بيد أنه من حسن الطالع أن هذا الجيل المتعصب لثقافته الأجنبية يضمحل اليوم ؛ ذلك أن مصر يجب ألا تكون ميداناً بعد لنضال الثقافات الغربية التى تبتغى دائماً من بسط نفوذها العلمى والثقافى أغراضاً خاصة ، ويجب أن تسير مصر فى تكوين ثقافتها القومية على مبدأ الاختيار الحر بعيداً عن دعاية أولئك الرسل المتعصبين

إن فرنسا تتمتع منذ الأحقاب بسمعة جامعية وعلمية راسخة ، وما زالت باريس بجامعتها الشهيرة كعبة الطلاب من سائر الأنحاء والأمم ، وما زال حيها الجامعى أو الحى اللاتينى على تقشف مظهره من أشهر أحيائها وأجدرها بالحب والعطف ، وأغناها بالذكريات

فى الحى اللاتينى يتفتح الذكاء الفرنسى ، وفيه تشع العبقرية الفرنسية ، وفيه ينهل ألوف من الشباب الأجنبى مورد الثقافة الرفيعة ، ويلمسون كثيراً من نعم النظم الديموقراطية التى تسود أفق الحياة العامة فى فرنسا

وفدنا على باريس فى صميم الصيف والحياة الجامعية معطلة ، فلم يتح لنا أن نرى شيئاً من مظاهر نشاطها ، ولكننا مع ذلك طفنا بأرجاء الحى الجامعى مراراً ولمحنا آثار الصبغة الجامعية تطبع الحى فى معالمه ، وفى فنادقه ومقاهيه ، ومظاهر حياته المتواضعة

يشغل الحى الجامعى ركناً من أقدم أركان باريس وأكثرها

تواضعاً ، كما يشغل حينا الأزهرى أقدم أركان القاهرة وأكثرها تواضعاً ؛ وقوام الحى الجامعى شارع سان ميشيل : فنى ضفته اليسرى يقع ميدان السوربون . وشارع سوفلو ، وفيما بينهما وبين شارع سان جاك تقع السوربون والكليات المختلفة الملحقة بها فيما بين دروب وشعاب ضيقة قاتمة ؛ وفيما بينهما أيضاً تقع عدة من المعاهد العلمية القديمة مثل كلية «لوى الأكبر» ؛ ومن الحق أن يقال إن هذه المجموعة القديمة من المبانى القاتمة لا تتفق فى مظاهرها المادية المتواضعة مع ما لها من سمعة جامعية مؤثلة ؛ بيد أن هذا الحرص على القديم ربما كان فى ذاته مثاراً للاجلال والاعجاب بهذه المعاهد التالدة التى يرجع بعضها الى نحو سبعمائة عام ، فنحن نعرف أن معهد السوربون أسس فى منتصف القرن الثالث عشر ، فى عهد لويس التاسع ، وكان فى الأصل معهداً لتدريس العلوم الدينية ، وأن تنظيم الكليات الجديدة فى السوربون يرجع إلى عصر نابليون ، أى إلى نحو قرن وربع

وحى سان ميشيل الذى يضم هذا الحشد الجامعى ، كما قلنا حى متواضع بيد أنه حى عامر ضخم ، ويمتد بولفارسان ميشيل من أحد طرفيه الى مونبارناس ، وشارع «البور رويال» وما زال يخترقه الى اليوم خط الترام بعد أن ألغيت خطوطه من معظم الشوارع الكبرى ؛ ويتصل من الناحية الأخرى بشارع ڤوجيرار على مقربة من الأوديون وحديقة اللوكسمبور التى تبث نسيمها الصبوح الى الأحياء المجاورة ، والتى يهرع اليها جمهور الطلبة والشعب يتفيأون ظلالها ورياضها ؛ وفى سان ميشيل والشوارع المتفرعة منه عدة من الفنادق الرخيصة التى تنم عن تواضع روادها ؛ وهنالك أيضا طائفة من المكتبات التى تتاجر فى الكتب المستعملة ؛ وإنك لتلمس على الجملة فى كل ناحية من أنحاء سان ميشيل وما اليه ما يدل على صفة الحى المتواضعة النبيلة معاً

***

ولا بد لنا بهذه المناسبة أن نذكر كلمة عن المدينة الجامعية Cité Universitaire التى تربطها بالحى اللاتينى أوثق الروابط ؛ والتى لا يعرفها كثيرون من المصريين الذين درسوا فى فرنسا لأنها أنشئت منذ أعوام قلائل فقط

تقع المدينة الجامعية فى ظاهر باريس من جهة الشمال الشرقى فى شارع چوردان Jourdain فى بسيط أخضر من الحدائق والحقول النضرة ؛ وقد كان من حظى أن زرت المدينة الجامعية وطفت بأنحائها برفقة مدموازيل ليجران ، وهى آنسة رفيعة الثقافة تتولى منصبا فى إدارة المدينة الجامعية نفسها ، وهى التى تفضلت بالشرح والتعريف لكل ما سألت وشاهدت

كان أول من فكر فى هذا المشروع الجليل عضو من أعضاء مجلس الشيوخ غاب عنى اسمه ، فدعا اليه فى المجلس وفى الصحافة ، ولم يلبث أن صادف نجاح التحقيق ؛ وكان المثرى الأمريكى روكفلر أول من اهتم بأمره ونفحه بهبة مالية حسنة ساعدت على تحقيقه

وتنقسم المدينة الجامعية إلى قسمين : القسم العام ويشمل الأبهاء والمرافق العامة وإدارة المدينة الجامعية نفسها ، وهذا القسم هو روح المدينة وهيكلها الحقيقى ؛ والقسم الخاص ، وهو الذى يضم دور الطلبة لمختلف البلدان ، وهو خاص بسكنى الطلبة ؛ وفى القسم الأول حديقة بديعة وعدة أبهاء كبيرة للمطالعة والكتابة والجلوس قد أثثت جميعها ببساطة واتقان معاً ؛ وهنالك مطعمان كبيران قد صفت فيهما موائد بسيطة نظيفة ، وكذلك مقهيان كبيران ؛ وفى وسع الطلبة أن يجلسوا للمذاكرة أو الكتابة أو السمر فى هذه الأبهاء الشاسعة المنيرة ، وأن يتناولوا الطعام أو القهوة أو الشاى أو غيرها فى تلك المطاعم أو المقاهى النظيفة بأثمان زهيدة جداً تناسب أحوالهم وماليتهم ؛ ووجبة الطعام الحسنة تكلف الطالب من ٣ إلى ٥ فرنكات ، وثمن المشروب فرنك أو نصفه ، وهذه أثمان لا تحلم بها فى مطاعم المدينة ومقاهيها ؛ وهنالك حمامات وملاعب ومسرح يقوم الطلبة بالتمثيل فيه أو تمثل فيه الفرق التى تدعوها إدارة المدينة لتسلية الطلبة ، وهنالك فى الطابق الأرضى مكتبة بدىء بتأثيثها وإعدادها لتغذى الطلبة وتعاونهم على المذاكرة والبحث : هذه هى محتويات القسم العام للمدينة الجامعية شرحناها بإيجاز ؛ وإنك لتشعر أثناء الطواف بهذه الأبهاء والغرف الشاسعة التى تشرف على الحدائق والحقول النضرة ، إنها أبدع ملاذ يمكن أن يأوى إليه الطالب فى أوقات المذاكرة والفراغ معاً ، بعيداً عن صخب المدينة وضجيجها ، وإنك لتأنس شعوراً من الغبطة والاعجاب بما هيئ للشباب من وسائل الراحة والمتاع البرىء

وأما القسم الخاص من المدينة الجامعية فيحتوى على عدة دور كبيرة أنشئت إلى جانبي القسم العام عن يمينه وعن يساره على طول شارع جوردان ؛ لكل دولة دارها ؛ فهنالك دور لانكلترا وأمريكا واليابان وفرنسا وهولنده وبلجيكا وكندا وغيرها ؛ وتخصص هذه الدور القومية التي تتولى الدول المختلفة تشييدها على أرض تمنح لها ، لسكنى طلبة هذه الدول ، فدار انكلترا خاصة بالطلبة الانكليز ، ودار أمريكا بالطلبة الأمريكيين ، وهولنده بالهولنديين ، وهكذا ؛ وأبدع الدور وأعظمها هي دار الولايات المتحدة ؛ وهنالك دار صغيرة ولكن أنيقة لليابان ؛ وقد أعدت هذه الدور لتكون فنادق للطلبة وجهزت بوسائل الراحة والنظافة ، وأثثت ببساطة واتقان ؛ ويستطيع الطالب أن يجد سكناً في دار البلد الذي ينتمي إليه بأجر شهرى قدره مائة فرنك ؛ ويستطيع أن يجد غرفة خاصة حسنة الأثاث بأجر شهرى قدره مائتا فرنك ، وتغص هذه الدور بالطلبة لما لها من مواقع جذابة تغمرها الشمس والضوء والهواء ، ولما للسكن فيها من المزايا المريحة

ولقد وددنا أن نرى في المدينة الجامعية بين هذه الدور الأنيقة الضاحكة ، داراً مصرية ! ففي باريس يدرس دائماً عدد كبير من الطلبة المصريين ، وإنها لدعاية حسنة لمصر المستقلة الفتية أن يكون لها دار جامعية في العاصمة الفرنسية إلى جانب دور الأمم الأخرى ، وإنها لنعمة سابغة لطلبتنا أن يكون لهم في باريس دار مصرية يأوون اليها بعيداً عن صخب المدينة ومغرياتها ؛ فهل تفكر وزارة المعارف في هذه المسألة الهامة ، وهل توليها شيئاً من عنايتها وعطفها ؟ إنا لنرجو مخلصين داعين بالتوفيق والتحقيق

* * *

هذا ولا تنس وأنت في باريس أن تزور «المكتبة الوطنية» في شارع ريشليو ، ففي هذا المعهد الثقافي الضخم كنوز زاخرة من الكتب في مختلف العلوم والفنون ؛ وفي المكتبة الوطنية قسم شرقي ضخم ، وقسم خاص بالمخطوطات العربية ، ولكل قسم فهارسه المنظمة ، ومرشدون يفهمون أعمالهم حق الفهم ، وقد لفت نظرنا عند مراجعة فهارس المخطوطات العربية عدة أسماء لمخطوطات نادرة مثل : أحاديث الامامة والسياسة (رقم ١٥٦٦) ، وحسن المسالك لاخبار البرامك (٢١٠٧) وعيون المعارف للقضاعي (١٤٩٠) ، وتراجم الصواعق في وقعة الصناجق (١٨٥٣) ، وتاريخ المهديين والحفصيين (١٨٧٤) ، وتاريخ مصر لابن زولاق (٤٧٢٧) . بيد أننا لم نجد متسعاً من الوقت لبحث هذه المخطوطات لمعرفة حقيقتها ومبلغ أهميتها

وهنالك في باريس صرح لا بد لكل مسلم أن يزوره ، هو مسجد باريس ؛ ويقع المسجد في قاصية باريس ، وفي حي من الأحياء القديمة المتواضعة على شوارع جوفرى سانت هيلير ، وجورج دوبلا ودوبانتون ، وقد بني على الطراز المغربي ، ويشرف بابه العمومى ومئذنته على شارع دوبانتون ، وفي فنائه حديقة صغيرة حولها أروقة أربعة تفضى إلى أبهاء وأجنحة ومرافق مختلفة ، وفي الجهة اليمنى من الفناء يقع المصلى ، وهو بهو شاسع أنيق ، قد فرش بالبسط النفيسة ، وبه عند القبلة منبر مكسو بالديباج الأخضر من إهداء مليكنا المغفور له فؤاد الأول ؛ ولقد يممنا في عصر ذات يوم إلى هذا الحرم الاسلامى المقدس الذي يحفه الصمت العميق من سائر نواحيه ، ولم نتمالك أن نجثو خاشعين لله عز وجل ، وأن نؤدى ما تيسر من الصلاة مغتبطين لذكر الله ورسوله في هذا الحرم النائى عن أرض الاسلام

وبالمسجد مكتبة صغيرة ومعهد قيل لنا إنه تلقى به محاضرات اسلامية مختلفة ، ومستشفى صغير لبعض الأمراض الخطيرة ؛ وبه أيضاً حمام عربى ، ومقهى ومطعم عربى ، قد صفت موائده في حديقة داخلية صغيرة تقع في الجهة الشرقية ، وتعزف فيها الموسيقى العربية أحياناً ، ويقوم بهذا العزف بعض الموسيقيين المغاربة . وقد تناولنا القهوة العربية لأول مرة في باريس في هذا المنتدى الأنيق وسمعنا الموسيقى العربية في مجتمع قوامه مسلمون من مختلف الأمم

بيد أن شعور الغبطة الذي قد يأنسه المسلم مدى لحظة لقيام هذا الصرح الاسلامى في باريس لا يلبث أن يمازجه شعور بالمرارة والأسف حين يستعرض المعانى والظروف التي أقيم فيها . إن فرنسا لم تعمل لاقامة هذا المسجد حباً بالمسلمين أو احتراماً لشعائرهم ومشاعرهم ، وإنما أقامته أداة من أدوات التأثير الاستعمارى ، وهو في الواقع رمز لسيادتها على الأمم الاسلامية التي تسودها أكثر منه رمزاً للعطف والتقدير

وإلى هنا نقف اليوم ؛ وسنحدثك في الفصل القادم عن الحياة الليلية في باريس ، وعن بعض مظاهر المجتمع الباريزى

(***)

الجانب الصوفي
في الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

— ٥ —

إلى هنا انتهينا من بيان أثر نظرية السعادة الفارابية في رجال المدرسة الفلسفية الاسلامية وفي طائفة من المتصوفة الذين تشوبهم روح فلسفية . والآن يجدر بنا أن نبين ما إذا كانت هذه النظرية قد أثرت في الصوفية الآخرين المعتدلين أو المحافظين إن صح هذا التعبير . وإن مهمتنا في هذه المرحلة أشق منها في سابقتها ، لأنه ليس بغريب أن نفترض صلة بين فلاسفة وصوفية متفلسفين . أما محاولة إثبات علاقة بين الفلسفة والتصوف البحت الذي يرى من واجباته الأولى محاربة الفلاسفة والمتفلسفين فهذا أمر عسير ، ومهما يكن فسندرس هذه النقطة بنفس الطريقة والمنهج اللذين درسنا بهما النقط السابقة مبينين أولاً السر فيما ذهبنا إليه من تقسيم الصوفية إلى معتدلين ومتطرفين

لم يكن الاسلام فسيح الصدر للرهبنة المسيحية والتقشف الهندي ، وكثيراً ما دعا إلى العمل للدنيا والتمتع المباح بلذائذ الحياة : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » فهو بعيد إلى حد كبير عن طريقة القسس والرهبان في بيعهم وصوامعهم وسنة فقراء الهند وعبادهم في ألمهم وعذابهم المستطاب . ومع هذا فكل دين كائناً ما كان يشتمل بعباداته ونصائحه على قدر من التصوف لا يحتمل الشك . وسبق أن أشرنا إلى أن هناك عوامل كثيرة وتعاليم مختلفة : هندية وفارسية وأغريقية ومسيحية أثرت في تكوين التصوف الاسلامي ، ولكن يجب أن نضم إلى هذه المؤثرات الخارجية عاملاً آخر داخلياً وجوهرياً ، ألا وهو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبعض الأعمال الدينية . ولو لم يكن في طبيعة الاسلام ما يسمح بشيء من التصوف ما وجد التقشف الهندي والرهبنة المسيحية إلى المسلمين سبيلاً . وقد دار نقاش طويل بين المستشرقين متعلق بأثر القرآن في تكوين نظريات الاسلام التصوفية ، وهم في هذا فريقان : فريق ينكر هذا الأثر وآخر يثبته . وفي مقدمة الفريق الأول يجب أن يذكر البارون كارا دي ڤو الذي يزعم « أن القرآن لم يكن مطلقاً الكتاب الذي استطاع مبدئياً أن يجتذب الصوفية نحوه كثيراً ، لأنه متعلق جداً بالأمور الخارجية وليس فيه الحنو الداخلي والروحي حقيقة »(١) . وعلى عكس هذا يقرر أستاذنا ماسينيون ، وبجانبه الأستاذ مرجليوث ، « إن في القرآن البذور الحقيقية للتصوف . وهذه البذور كفيلة بتنميته في استقلال عن أي غذاء أجنبي »(٢) . ونحن نعتقد أن القرآن أعان الصوفية كما أعان المتكلمين والفقهاء على نصرة آرائهم . فان كتاب الله في العالم الاسلامي قاموس للنحاة واللغويين ، ومذهب فلسفي للباحثين والمفكرين ، وذكر يتقرب به المبتهلون والمتضرعون ، ولائحة يرجع إليها المشرعون ، وعقيدة يحتج بها المتكلمون . وكثيراً ما حاول أصحاب الآراء الجديدة والنظريات الحديثة الاحتجاج به والاعتماد عليه ، بل إن هؤلاء أحوج إلى نصرته من غيرهم فان آية منه قد تقرّب آراءهم إلى من حولهم وتكسب نظرياتهم سلطاناً دينياً وصفات شرعية . فالصوفية إذن لا فرق بين متطرفيهم ومعتدليهم أفادوا من القرآن بقدر ما أفاد غيرهم من الباحثين . وأما ما في هذا الكتاب الكريم من حنو ورقة وعطف وشفقة فأمر لا يقبل الشك . ويدهشنا أن البارون كارا دي ڤو لم يتنبه إليه ؛ ذلك لأن القرآن لا يخاطب العقل وحده بل يناجي كذلك القلب ؛ ولا يعنى بالظاهر أكثر من عنايته بالباطن . وكم فيه من تحاليل شائقة وأساليب جذابة تصف أحوال النفس وأحاديثها الداخلية . وكيف يتصور أن يخلو كتاب سماوي من مناجاة القلوب والأرواح وهو إنما أعد أولاً وبالذات للجماهير التي تحس قبل أن تفكر وتسير غالباً وراء العاطفة والوجدان . وإنه لجهل بطبيعة الأديان أن يقال إن تعاليمها مصوغة في قوالب منطقية ولغة عقلية بحتة . ويطول بنا البحث لو حاولنا أن نسرد هنا كل الآيات القرآنية المتصلة بالقلب والروح والتي

(١) Ibid., p. 219.
(٢) Massignon, La Passion, p. 480. — Margoliouth, Early Development of Mohammedanism, p. 199.

استطاع الصوفية استغلالها فى نواح كثيرة ، ونكتفى بأن نشير إلى دراسة تحليلية عميقة أبان فيها الأستاذ ماسنيون الألفاظ الصوفية المقتبسة من القرآن الكريم[1] . فمصطلحات المتصوفة فضلاً عن نظرياتهم ترجع إلى أصل فى كتاب الله . وغنى عن البيان أن حديث المعراج وقصة يوسف كانا أساساً لنظريتين هامتين من النظريات الصوفية وهما الجذب والحب . والعلم اللدنى الذى يتباهى به أهل الكشف والواصلون صورة مأخوذة عن الخضر عليه السلام الذى قال الله فى شأنه : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » . وعلى هذا يجب أن نبحث عن أصول التصوف الاسلامى فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما نبحث عنها فى الصوامع الهندية والبيع اليهودية والكنائس المسيحية وتعاليم مدرسة الاسكندرية . غير أنه لا يفوتنا ، وهذا أمر ينبغى التنبه إليه ، أن الألفاظ والآيات القرآنية مرت بأدوار مختلفة من حيث مدلولها وتفهم الناس لها . فقد يفهم صحابى من لفظة قرآنية ما لا يفهمه تابعى أو رجل من رجال القرن الثالث الهجرى . ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى مرونة الألفاظ القرآنية ومسايرتها للزمن والتقدم العلمى . ولو جارينا متصوفى العصور الأخيرة لرددنا كل بحث صوفى إلى آية قرآنية أو حديث نبوى ، وهذا إسراف من غير شك . فلا يصح إذن أن نبحث عن أساس التصوف الاسلامى فى القرآن وحده أو فيه كما فهمه الصوفية المتأخرون ، بل يلزمنا أن ننشد هذا الأساس فى الألفاظ والآيات القرآنية كما بدت للمتصوفين الأول . يقول الأستاذ نكلسون : « صواب أن نعد المتصوفة بين خواص دارسى القرآن ، ولكن لا يصح ، فيما أظن ، أن نعتبر التصوف مجرد نتيجة للدراسات القرآنية »[2] . وفى هذه الجملة القول الفصل والحكم السديد فى تلك الخصومة الآنفة الذكر التى شجرت بين المستشرقين . فأنا لا نسلم بأبعاد القرآن رأساً عن النظريات الصوفية ، كما لا نوافق على عده وحده كفيلاً بخلق تصوف كامل . ولا يفوتنا أن نشير أخيراً إلى أن هذه المركة فقدت اليوم كثيراً من أهميتها

(١) Massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, p p. 28 — 29.

(٢) Nicholson, Legacy of Islam, p p. 212 — 213.

بدأ التصوف فعلاً على صورته الفطرية البسيطة منذ الصدر الأول للاسلام ، فلوحظ على كثير من الصحابة ميلهم إلى الزهد والتقشف وإعراضهم عن الدنيا ، بل لقد خطا بعضهم فى هذه السبيل خطوات فسيحة وبالغ فيها مبالغة واضحة . بيد أن هؤلاء الزهاد والمتقشفين لم يتسموا باسم خاص ولم ينتسبوا إلى طائفة معينة ، ولم تطلق كلمة « صوفية » على جماعة محددة إلا فى أواخر القرن الثانى للهجرة[1] . وما زال هذا النوع من السلوك ينمو ويزيد أنصاره إلى أن ولد بعض الابحاث والنظريات ، والعلم نتيجة العمل ، والنظرية فى الغالب وليدة التطبيق . لهذا رأينا رجالا من مفكرى القرن الثالث الهجرى ، وعلى رأسهم المحاسبى وذو النون المصرى ، يبدأون بوصف بعض الأحوال النفسية والظواهر الصوفية ، ومخلفاتهم من أقدم ما كتب فى هذا الباب[2] . ونظرية الاتحاد بوجه خاص ترجع إلى عهد متأخر ، فان البسطامى هو أول من قال بها[3] . ثم جاء الجنيد والحلاج فرفعاها إلى عنان السماء . وهذه النظرية أدق شىء فى التصوف الاسلامى ، وقد قسمت إلى طائفتين : طائفة تقبلها وأخرى ترفضها . والقرآن لا يشير اليها مطلقاً بعبارة صريحة ، بيد أن أنصارها لم يعدموا الحيلة فى دعمها ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى نستطيع أن نذكر منها قوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » « وهو معكم أينما كنتم » « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث القدسى : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبنى وأحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به[4] »

بيد أن الاتحاد الصوفى يؤدى إلى الاشتراك فى ذات البارى جل شأنه وحلول اللاهوت فى الناسوت ، وقبول شىء إلهى فى داخل العبد معناه هدم الوحدة الربانية . وكل الخلاف بين الأشاعرة والمتصوفة يتلخص فى هذه النقطة . فالأشاعرة

(١) القشيرى ، الرسالة ص ٨

(٢) Nicholson, Legacy, p p. 215—Massignou, Recueil, p 15

(٣) Nicholson, Legacy, p p. 215 — 216

(٤) القشيرى ، الرسالة ، ص ٤٥ — Ibid., p. 214

لا يقبلون أن ينزل الآلهي في الانسانى ولا أن يصعد الانسانى إلى الآلهى ، ويرفضون ضرورة مذهب الحلول وإن كانوا يسلمون بالتصوف فى جملته . إلا أن التصوف عندهم مقصور على وصف بعض الأحوال النفسية ودراسة الأخلاق العملية التى تسمو بالمرء إلى درجة الكمال دون أن تدعى الوصول إلى حلول الحلاج المزعوم . ومن هنا خرجت الصوفية المحافظة وانقسم المتصوفون إلى معتدلين ومتطرفين ، وليس هذا التقسيم بالجديد فى العالم الاسلامى ولا فى كل المدارس التى تسودها نزعة دينية . وإنا نلاحظ فى مختلف الدراسات الاسلامية — لا فرق بين التوحيد والفقه والتصوف — أن هناك شعبتين متميزتين : شعبة السنيين وشعبة المبتدعين ، أو شعبة المحافظين وشعبة الأحرار . وإذا كان الغزالى هو أكبر خليفة لأبى موسى الأشعرى فى نصرة مذهب أهل السنة الكلامى فهو بحق مؤسس التصوف السنى . وكأنما أخذ على عاتقه نصرة أهل السنة على طول الخط ومحاربة أهل البدعة كيفما كانت فرقهم ونحلهم ، فلاسفة كانوا أو باطنية ، متصوفة كانوا أو متكلمين ، حلاجيين كانوا أو معتزلة ، وقد آذت حملته الفلاسفة والمتفلسفين بقدر ما أخذت بيد أهل السنة من الكلاميين . أما التصوف السنى فهو تقريبا واضع أصوله وقواعده ومبين طرقه ووسائله فى إحياء علوم الدين الذى أضحى عمدة المتصوفين المتأخرين بلا استثناء . نعم إن الغزالى يجهر هنا بنظريات متناقضة تناقض آراءه الكلامية والفلسفية ، فتراه مثلاً يحارب محاربة عنيفة ويرفض رفضاً باتاً نظرية الاتحاد الحلاجية فى كتاب الأحياء على حين أنه يميل إليها ويقول شيئاً يشابهها تمام المشابهة فى كتاب مشكاة الأنوار ، وهذه نقطة ضعف لاحظناها عليه من قبل[1] ، ولعل تطوراً حدث فى آراء الرجل هو السر فى هذه النظريات المتناقضة ، ومهما يكن فكتاب الأحياء هو مصدر التصوف السنى من غير جدال ، وعليه نعتمد هنا أولاً وبالذات ، وهو الذى أثر وحده تقريباً من بين كتب الغزالى الصوفية فى المتصوفين المتأخرين . وماكان الغزالى لينكر التصوف وقد ركن إليه بعد أن خبر الدراسات الأخرى ولم يطمئن إليها ووجد فيه حصنه الحصين[2] . فهو يرى أن علم القلوب لازم لزوم علم المرئيات والملموسات ،

(١) الرسالة ، العدد ١٤٢ ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥

(٢) الغزالى ، المنقذ من الضلال ، ٢ — ٧ ص

لأن هناك عالمين عالم الباطن وعالم الظاهر . فاذا كان بعض العلوم يتولى عالم الظاهر بالدراسة والشرح فلا بد من علم خاص لتوضيح عالم الباطن . والمعلومات نفسها ضربان : حسية وصوفية أو ظاهرية وباطنية ؛ وفى هذا التقسيم ما يقابل أنواع العلوم التى أشرنا اليها من قبل[1] . ولكن قد يقال إن وسيلتنا فى تعرف المعلومات الظاهرية هى الحواس فبأى طريق نستطيع الوصول إلى المعلومات الباطنية ؟ والأمر فى هذا يسير إذا ما رجعنا إلى الصوفية فانهم يقولون إن التقشف والزهد والفضائل العملية جميعها سبيل ادراك الحقائق الخفية والألهامات التى تجاوز عالم السمع والبصر . فالمعرفة إذن هى غاية التصوف السامية . أما اتحاد العبد مع الرب فهذه قضية منقوضة عقلاً وغير مقبولة نقلاً . وإذا شئنا أن نقارن بين تصوف الغزالى وتصوف الفارابى وجدناهما متفقين على رفض مذهب الحلول الذى ذهب إليه الحلاج والألهام الذى يعمل له الغزالى يشبه من وجوه كثيرة الاتصال الذى جد فى طلبه الفارابى . وكلا الرجلين يؤمن بوجود معارف باطنية وراء الحقائق الحسية ، وهذه غاية الحياة العملية والنظرية ومقصد الصوفية والأنبياء . ولقائل أن يقول إن الغزالى يستمد إلهاماته من الله مباشرة على حين أن الفارابى يقنع بالاتصال بالعقل الفعال . ولكن هذا الفرق فى الواقع سطحى فأن العقل الفعال فى رأى فلاسفة الأسلام جميعاً ليس إلا فاصلا معنويا ومرحلة تدرج بين العبد وربه ، وكل فيض مصدره الأخير والحقيقى هو الله جل شأنه . وعلى هذا يمكننا أن نستنتج من كل ما سبق أن نظرية السعادة الفارابية أثرت فى جميع المتصوفة المسلمين المتطرفين منهم والمعتدلين أو الأحرار والمحافظين

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) انظر أيضاً الغزالى ، الأحياء ، جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٤ Carra de Vaux, gazali p p. 304 — 205

في الأدب المقارن

أسباب النباهة والخمول في الأدب بين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الدارسون للآداب نثراً ونظماً في كل أمة وفي كل جيل أكثر من أن يُعدوا، لأن الافصاح عن خوالج النفس وتأثراتها بما تحس وما ترى طبعي في الانسان، وإنما يَنْبُهُ من أولئك الدارسين للآداب القليلون ويخلد الأقل؛ يميزهم من غيرهم سداد الفكر ولطف الشعور وروعة الأسلوب، ومن أولئك يكون أعلام كل أدب، ترفعهم عبقريتهم فوق رؤوس معاصريهم وتمشي بهم على عواتق الأجيال

غير أن للمصادفات والحظوظ والظروف دخلاً كبيراً أو صغيراً في صعود الأدباء وهبوطهم، فتعدل أحياناً وأحياناً تجور. والأرجح أنها كانت كثيرة الجور والاجحاف في الأدب العربي، وكانت أشبه بالعدل والانصاف في الأدب الانجليزي، فقد صاحبت الأدب الانجليزي ظروف طبيعية مساعدة تسمح للعبقرية الفردية أن تسلك سبيلها غير معتاقة، وأحاطت بالأدب العربي عوامل عارضة أدت الى رفع بعض من لا يستحقون الرفعة بجوار من يستحقونها، والى خفض من هم أولى بالرفعة والنباهة

فقد ترعرع الأدب العربي ونضج وقومه أميون لا يقيدون في القرطاس آثار أدبائهم وأخبارهم، وإنما يروونها رواية ويتوارثونها تواتراً جيلاً بعد جيل؛ والرواية أقل من الكتابة نصيباً من الدقة وحفظ الآثار والتمييز بين الغث والسمين والبصر بما يستحق البقاء، فكان من جراء ذلك أن ضاع شعر كثير ونثر أكثر، واندثرت أخبار أدباء لعل منهم من كان أجدر بالخلود وأجدر بإعجاب الأجيال التالية ممن خلد؛ ولم يصلنا من أخبار قرون طويلة قبل الاسلام وبعده إلا كل مبتور غير مستوثق

فلما صارت الرواية صناعة يطلب بها علو الذكر ودرُّ الرزق وتقريب الأمراء، كان ذلك ضغثاً على إبالة، إذ اشتد عبث الرواة بما بين أيديهم من الأدب العربي، وشوهوه بالبتر والوصل والاختراع والنحل، وحملهم تنافسهم وتكاثرهم بسعة العلم على تخليد أسماء أنصاف الأدباء وأشباه الشعراء، وخلقوا شعراء وفصحاء لم يخلقوا من قبل، وعزَوْا الى غيرهم من الآثار ما هم براء منه؛ وهكذا خمل من رجال الأدب من عاشوا في عالم الأحياء، وعاش في عالم الأدب من لم يشهدوا نور الحياة

ولما استعملت الكتابة الخطية وقل الاعتماد على الرواية، ظلت الكتب نادرة والاستنساخ أمراً غير يسير، ولم تكن الكتب في شيء من الكثرة التي صارت اليها بعد انتشار الطباعة. ثم تعاورت الدولةَ العربية الغزوات البربرية المدمرة، فأباد الوثنيون في الشرق، والنصارى في الأندلس، كرائم المؤلفات ونفائس الكتب العربية، فذهبت بذهاب ذلك آثار أعلام من الأدباء واندثر ذكر آخرين

وكان للمشادات والمقارعات الدينية والمذهبية والعصبية والسياسية والجنسية التي صحبت قيام الدولة الاسلامية ولازمتها في حياتها يد طولى في العبث بالتراث الأدبي، فأخمل ذكر أدباء انهزم حزبهم أو انخذل مبدؤهم، ونُشر عمداً ذكر من ناصروا الغالبين في كل تلك الحلبات، وتبارى الغالبون والمغلوبون في العبث بتراث أسلافهم الأدبي ونسبة الروايات الملفقة اليهم، ولهم من انتشار الرواية وندرة الكتابة خير معوان

ويتصل بهذا تقريب الخلفاء والأمراء لرجال الأدب، لا براً بالأدب ولكن طلباً للأبهة وبعد الصيت، فقد أصبح اتصال الشاعر أو الأديب بالخليفة أو الأمير ضمان النباهة وسيرورة آثاره في البلاد، كما كان الإخفاق في التقرب الى أولئك الحاكمين داعياً في كثير من الأحيان الى خمول الأديب، فندر من أعلام العربية النابهين من لم يتصل بالخلفاء والوزراء. ولا يسع المرء إلا أن يتصور أن عصور أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري كانت حافلة بأندادهم، وإنما خلصت بهؤلاء لطافة حيلتهم الى حضرة الأمراء فاشتهروا، وعثر بغيرهم مسعاهم فخملوا. ولقد خمل ذكر ابن الرومي طويلا وإنه لأشعرُ ممن ذكروا جميعاً؛ ولعل من أسباب خمول ذكره فشله في الاتصال بالخلفاء والوزراء

ولما استرقّت جوائز الملوك أعناق الشعراء ، وأعمل هؤلاء الحيل ، وأذالوا الشعر فى استرضاء الممدوحين واستجداء الأثرياء ، ترفع كثير من ذوى الشرف والأباء عن الهبوط الى ذلك المجال ، وأحجموا عن نظم الشعر أو التوفر عليه أو الاشتهار به ، ولسان حالهم قول الشافعى :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإن يكن أبو تمام يقول :

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى

بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فانما كان يعنى شعر المتقدمين من جاهليين ومخضرمين ممن تغنوا فى شعرهم بالنجدة والمروءة والعزة ، وما نخاله كان يعنى الشعر الذى كان ينظمه هو وأضرابه تمليقا واستجداء للرؤساء

وبذلك حُرمت العربية طائفة من الشعراء لعلهم أسمى طباعا وأشرف أغراضا وأصدق شاعرية وأشد حباً للفن من مرتزقة المداحين الذين استأثروا بالجوائز ونباهة الذكر

ولما فسدت الفصحى تدريجاً باختلاط العرب بالأعاجم ، اشتد الحرص على آثار المتقدمين وتعاظم الاعجاب بهم والرفع من شأنهم ، لا لشيء سوى صحة لغتهم واستقامة أساليبهم ، وإن كانت أفكار كثيرين منهم على جانب من السذاجة ، وأغراض شعرهم على حظ من البساطة ، كالحطيئة وابن أبى ربيعة وكثير من الجاهليين

فهذه عوامل شتى فعلت فعلها البعيد المدى فى التراث الأدبى العربى ، وساعدت على إعلاء ذكر رجال وخفض آخرين ، وهى : ندرة الكتب والاعتماد على الرواية ، والأغراض المذهبية ، وتسخير الأمراء للشعر ، وتكسب الشعراء به ، وفساد لغة الكلام ، وكوارث الغارات . تحكمت كل هاتيك فى أقدار الأدباء وحظوظهم من النباهة ، ولم يكن مردّ أمرهم دائماً إلى النبوغ الشخصى والذوق الناقد ، فلا نبعد عن الصدق إذا قلنا إن الأدب العربى لم يحتو على خير عناصر المجتمع العربى أو يمثله أصح تمثيل ، وإن سجل تاريخ الأدب العربى لا يحتوى على جميع أفذاذ الموهوبين من أصحاب البيان الذين أنجبهم المجتمع العربى

ومن ثم احتل مكان الصدارة من تاريخ الأدب العربى بعض من لا يستحقون ذلك المكان ، ومن لا يعبرون خير تعبير عن أفكار عصورهم وشعورها ؛ ومنهم مَن نال من رفيع الذكر ما هو أهله ، ولكنه لم ينله لمزاياه الصحيحة وأسرار نبوغه الحق بل لمساعدة بعض تلك العوامل السالفة الذكر له ؛ فقد كان وما يزال من النقاد من يعظم المتنبى لا لأشعاره الصادقة التى أودعها عصارة روحه الكبير ، بل لاختراعاته الكاذبة فى مدح سيف الدولة وتهنئته وتعزيته ، مِن مثل قوله :

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى أغمادها تتبسم

وبجانب تلك النباهة غير المستأهلة أو المبنية على غير أسامها الصحيح ، خمولٌ ما كان أحق أصحابه بالذكر والتمجيد ، ولقد قال البحترى :

إذا أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه

ولعله هو خير من يعلم كم أخملت الدنيا بنباهته من شعراء ، حين وقفه الحظ دونهم إلى الاتصال بالولاة والخلفاء

فمن أفذاذ الخوارج أمثال قطرى بن الفجاءة وشبيب بن يزيد من كانوا أسمى غرضا وأشرف شعراً ونثراً من معاصريهم المداحين ولكنهم أخمل منهم ذكرا . ومن الأبيات السائرة المجهولة القائلين ما تشمل حكمة يقصر دون مداها أشباه بشار وأبى نواس ، أو تحوى نسيباً تزرى روعته بكل ما لُفق فى صدور المدائح من نسيب مصطنع ، أو تعبر عن شاعرية صحيحة ما كان أحرى صاحبها أن يتوفر على إثراء اللغة بفيض قريحته ، ولكن طوفان تلك العوامل القاسية غمره ورفع غيره ، فمن تلك الآثار الشاردة قول القائل :

أهابك إجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها
وماهجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول الآخر :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها
فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معا
كفى بالممات فرقة وتنائيا

ولم يخلُ الأدب الانجليزى من آثار الاجحاف وتقلُّب الظروف : فأمام شعرائه شكسبير لم ينل فى حياته مثل ما له اليوم من مكانة ، وخمل ذكره بعد مماته أجيالاً ، وعلا شأنه خارج انجلترا قبل أن يعلو فيها . وقريعه فى سماء الشعر الانجليزى ملتون

قضى أواخر حياته فى غمرة من النسيان لانخذال مذهب المطهرين الذى كان هو لسانه الناطق ، وباع ملحمته الذائعة الصيت لورّاق بدراهم معدودة ، وظل حقبة مهملا . وكبير النهضة الرومانسية وردزورث قضى زهرة عمره منبوذاً مُعْرَضاً عنه . وبعكس ذلك سما تنيسون فى حياته الى أوج الشهرة والاعجاب ، ولم يكد يقضى نحبه حتى هبط ذكره وانصرف الجيل التالى عن شعره

على أن تلك كلها أمثلة لتقلب الأذواق بتعاقب الأجيال ، وهو أمر طبيعى لا محيد عنه . وقد خلا الأدب الانجليزى أو كاد من تلك الظروف العاتية التى لابست الأدب العربى وتحكمت فى مصاير رجاله : فقد شب الأدب الانجليزى من عهد اليزابث وقد اخترعت الطباعة ، واطرد رقى الطباعة وانتشار الكتب والصحافة والتعليم مع اطراد رقى الأدب ، ولم يخضع الأدب طويلاً لسيطرة الحكام ، وظل مرد الأمر فى تقدير الأدباء إلى الرأى العام المتعلم الذى يقوّم الأديب لفنه الخالص ؛ فان رانت على بصيرته غشاوة من تقليد موروث أو مذهب سائد أو مشادة محتدمة فى السياسة لم يلبث بعد أن ينجلى ذلك أن يعود إلى إنصاف من أجحف بهم وإسقاط من لم يستحقوا سالف تقديره

فالى أمرين اثنين يدين أعلام الأدب الانجليزى فى مراحله المتتالية بنباهتهم وخلودهم : نبوغهم الشخصى ، والذوق العام . وليس بين أقطابه الذين يعتد بهم من لا تؤهله عبقريته لما أوليه فى تاريخ الأدب من مكانة ، أو من هو مدين بخلود ذكره الى أهواء السياسة أو أغراض الحاكمين أو دسائس الأحزاب أو تحريف الرواة أو عبث النقاد

فالنابهون فى الأدب الانجليزى أكثر استحقاقاً لمكانتهم من النابهين فى الأدب العربى ، والخاملون المغبونون فى هذا الأخير أكثر منهم فى الأول ؛ والأدب الانجليزى بما أحاط به من ظروف مواتية أسهل تأريخاً ودرساً من الأدب العربى . وهذا الأخير محتاج الى مراجعة ودرس طويل وتاريخ جديد غير التاريخ الذى جرى عليه العرف حتى الآن ليمنح كل أديب حقه من التقديم أو التأخير ، ويُزَحزَح عن الصدر من لا تؤهلهم له آدابهم ونظراتهم فى الحياة ، ويستنقذ من يستطاع استنقاذهم من غمرة الخمول .

فخرى أبو السعود

٧٠٣٧

نابليــــون
وخطواته الأولى فى سبيل المجد
للأستاذ عبد المجيد نافع

تتمـــة

وشبت نيران الثورة فى باريس ، ودعت الحاجة إلى قمعها ، فأشاروا على باراس أن يعهد باخمادها إلى نابليون ، فعرض أن يوليه قيادة مجلس الأمة وأمهله ثلاث دقائق ليفكر فى الأمر ملياً

فياعجباً للأقدار ! ثلاث دقائق ، ثم يتقرر مصير نابليون ، ومستقبل فرنسا ، لا بل مستقبل أوربا بأسرها

واستعرض نابليون الموقف ، فلم يتردد فى القبول حين رأى خمسين ألف جندى من جنود النمسا يظهرون على أسوار ستراسبورج ، والانجليز يحاصرون بيوارجهم ثغر برست ، وحينذاك نسى خصومة الخصوم ، وعياءهم وعجزهم ، واستلهم الوطنية الحق فألهمته أن الوطن إذا أحدق به الأعداء وجب دفن الخصومات ، ودوس الحزازات ، ووضع اليد فى أيدى القائمين بالحكم مهما كانت صبغتهم وألوانهم ونزعات نفوسهم

فقال نابليون لباراس : إنى أقبل ولكنى أنذرك بأنى لن أرد السيف إلى غمده إلا بعد أن أعيد النظام إلى نصابه

وكذلك تجلى نابليون فى ثوب الوطنى الصادق والمحارب الصحيح الذى لا يطيق بحال أن تعرقل مساعيه أعمال السياسيين

وكان القبول فى الساعة الواحدة صباحا . فلما أقبل المساء إذا بباراس يعلن فى المجلس انتصار جنوده . فاذا جاء الغد رقى نابليون إلى رتبة قائد قسم ، وسمع الناس اسمه يتردد فى جوانب المجلس ، ثم يجتاز اسمه منبر الخطابة لينقش على صفحات الصحف فينفض عنه غبار الخمول الذى حجب اسمه عن الأسماع والأنظار ردحا من الزمن

وتقلد بونابارت قيادة الجيش فى الداخل ، واتخذ « فان » سكرتيراً له ، فكان هو الذى كتب أوامره حين بات قنصلاً

وهو هو الذى ، بعد أربعة عشر عاماً ، كتب وثيقة تخليه عن عرش فرنسا

وكان نابليون يختلف إلى صالون مدام تليان فرأى جوزفين فشغفته حباً ، وملكت عواطفه ؛ وكان فى السابعة والعشرين ، وكانت فى الثانية والثلاثين ، ولكنها كانت على جانب من الجمال والروعة فأضرمت نيران الغرام فى صدره

على أن الذين يحاولون تشويه شخصية نابليون بخلق البواعث غير الشريفة لأعماله ، وابتداع الحوافز لمشاعره ، تراهم يسارعون إلى القول بأن حبه لجوزفين إنما كان حباً مسرحياً ، وإن أكبر همه ، وغاية الغايات عنده أن يتذرع بذلك الزواج لتولى قيادة الحملة الايطالية

ولكنك قد رأيت كيف كان يتهالك وجداً على الزواج ، وكيف داعب الأمل بالاقتران بكليرى . وبعد فما هى العلالى والقصور التى كان يبنيها على الاقتران ببنت تاجر صابون !

ولو أنه لم يصادف هوى فى قلب مدام دى بوهارنيه ، إلا أنه وجد منها عند الزواج سميعاً وعجيباً ؛ فقد كانت ، على رغم موت زوجها ، ووجود ولد وبنت لها ، تحيا حياة خليعة ، وتتردد على مدام تليان ، وتغشى صالون باراس ؛ ومن كانت فى مثل حالها كانت خليقة أن تستند إلى ذراع رجل قوى كنابليون الذى أصبح فى طليعة القواد وأنقذ فرنسا من الأخطار التى تتهددها

ولكن هل كانت جوزفين خليلة لباراس ؟ إن بعض الكتاب المعاصرين يتبرعون بهذا التأكيد . على أن الذى يسترعى النظر أن جوزفين لم تظهر فى بيت باراس إلا باعتبارها صديقة لمدام تليان . والمنطق والبداهة يتضافران على أن الأخيرة لم تكن لتسمح لكائنة من كانت أن تنازعها هوى الرجل القابض بكلتا يديه على مصاير فرنسا

وإذا كانت جوزفين ، قبل الزواج ، شاءت أن تستوثق من باراس ، سواء بنفسها أم بواسطة مدام تليان ، أن زوجها المقبل سوف يكون موضع رعاية حكومة الدير كتوار ، بل إذا كانت لحت الى أن مكانه الحق أن يكون على رأس الحملة الايطالية ، فكل أولئك لا ينبغى أن يكون مثاراً للدهشة ما دامت جوزفين قد أرادت بهذا الزواج وجه المصلحة لا وجه نابليون

ولما كاشفت جوزفين نابليون بحديث باراس وعزمه على تقليده قيادة الحملة الايطاليـة قال لها لا تحسبى أنى ألتمس حمايتهم بل على العكس من ذلك هم الذين سوف يشعرون بالسعادة حين أظلهم بحمايتى . إن سيفى إلى جانبى ، وبه سأصل إلى أبعد الغايات

ولو أتيح لك أن تطالع الرسائل التى خطها نابليون إلى جوزفين لقرأت فيها آيات الحب مسطورة ، ذلك الحب المضطرم الذى ظلت حرارته متأججة من يوم أن عرفها وهو يحبو فى طريق المجد إلى يوم بات فى ذروة القوة وقمة السلطان

على أن وضع الخطة لاجتياز جبال الالب والانحدار الى سهول لومبارديا والانقضاض على الجيوش النمساوية وسحقها سحقاً ، كل أولئك قد استغرق وقت نابليون واستنفد جهوده حتى قلت زيارته لجوزفين . ولم تكن إلا فى شهر يناير من عام ١٧٩٦ حيث تقدم لها بطلب الزواج ولقى ذلك الطلب قبولاً

وكانت جوزفين لا تزال مترددة ، فأحبت أن تفزع الى نصيحة موثق العقود الأستاذ راجيدو ، فلما أقبلت على مكتبه توسلت الى نابليون أن ينتظرها فى غرفة الاستقبال ، ولم يكن من شأن نصيحة كاتب العقود أن تنتشل جوزفين من غمرة التردد إذ قال لها : « إنه لك ! أو تتزوجين بجنرال لا يملك غير الكبود والسيف ؟ فاذا صح أنه يملك شيئاً فانما يملك كوخاً حقيراً ! إنه لجنرال صغير ، لا اسم له ، ولا مستقبل ! تجىء مرتبته وراء مراتب جميع قواد الجمهورية ! انه لخير لك أن تقترنى بمورد للجيش ! »

ولم يكن نابليون يسترق السمع ؛ على أن الباب كان نصف مغلق ، وبذلك تطاير إلى سمعه حديث موثق العقود ، فلك عواطفه ولم ينبس ببنت شفة ؛ ثم استطاع أن يثأر لكرامته الجريح بعد ثمانى سنين . ففى غداة حفلة التتويج ، استدعى الرجل الطيب راجيدو إلى قصر التويلرى وأعطاه مكاناً فى الصف الأول بكنيسة نوتردام حيث تقام حفلة تتويجه امبراطوراً لفرنسا ، وبذلك يتاح له أن يرى بعينيه التى فى رأسه إلى أية ذروة من ذرى المجد يستطيع الجنرال الصغير الذى لا مستقبل له أن يسمو بوكلة موثق العقود الأستاذ راجيدو !

وفى ٢٣ فبراير نودى بيونابرت قائداً عاماً للحملة الايطالية ،

وحدد للزواج يوم ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وفى أوراق الزواج أنقصت جوزفين من عمرها أربع سنين سوياً ، وزاد نابليون فى عمره سنة كاملة ! فالتقى الزوجان فى العمر وإن لم يتلاقيا فى الحب !

على أن حملة المتهجمين على نابليون لا تقف عند حد . لذلك نرى جمهرة المؤرخين يملؤون أفواههم بأن قيادة الحملة الايطالية كانت هى البائنة (الدوطة) التى أعطاها باراس الى جوزفين

ومهما يكن هذا القول جارحا لذاعا فانه يتجافى مع الحقيقة . فليس يجوز فى عقل عاقل أن رجلا مثل باراس يجازف بتسليم القيادة الى قائد لا يقوى على الاضطلاع بأعبائها فيغامر بأقدس المصالح ، لا بل يقامر بمستقبل فرنسا

على أن الوقائع تهدم هذه الدعوى من أساسها ، وتضع قصة زواج نابليون بجوزفين فى نصابها الحق ؛ فلم يكن باراس يملك التصرف وحده فى مصير قيادة الحملة الايطالية بل كان لابد من موافقة الأغلبية فى حكومة الدير كتوار ، وقد كانت مؤلفة من كارنو وباراس وليبو وريبل ولوتورنور

وإذا جاز لنا أن نستصرخ ضمير رجل ، أو نفزع الى عدالة شاهد ، فأولى لنا ثم أولى أن نفزع الى ريفيير لوبو وقد كان لنابليون من ألد الخصوم ؛ وهو فى ذلك يقول : « لقد قيل إن زواجه بأرملة بوهارنيه كان شرطا لا يستطيع بدونه أن يحصل على القيادة التى جعلها مناط آماله . إن ذلك لم يكن ! والذى أستطيع أن أؤكده هو أن الاختيار الذى تم من حكومة الدير كتوار لم يكن تحت تأثير باراس ولا شخص غيره »

كيف إذن كان سبيل بونابرت الى تولى القيادة ؟ ينبغى لنا أن نذكر أن الجنرال الصغير قد وضع خطة لغزو بيمون فى ١٩ يناير وأن تلك الخطة قد أرسلت الى القائد العام شيرير ، فتلاها ثم بعث بها فى الحال الى حكومة الدير كتوار معلنا أنها من عمل مجنون ، وأنه لابد من استدعاء هذا المجنون وتكليفه بتنفيذها

فاختلط الأمر على حكومة الدير كتوار ، واحتدم وطيس الجدل بين أعضائها ، وما لبثت الغالبية وقوامها ليبو وكارنو وباراس أن جنحت الى جانب نابليون ، وانحازت اليه لترجيح كفته ، فعهدت إليه بانفاذ الخطة التى وضعها

وفى الحق ، فما كان نابليون مدينا بتلك القيادة لا الى زواجه ، ولا الى باراس ، وإنما كان مدينا بها الى كفاية كارنو الحربية التى أمكنته من التعمق فى درس الخطة التى وضعها نابليون ، وتفهم روحها ، فأتيح له أن يصل الى مكان الاقناع من نفوس زملائه

وما لبث نابليون أن انتزع نفسه من بين أحضان المرأة التى أحبها من أعماق قلبه ليبدأ سلسلة المعارك الدموية التى خاض غمراتها عشرين عاما

ومضى فى طريق المجد صعدا ، لا يلوى على شىء ، ولا يقف فى وجهه سهل ولا جبل ، حتى تألبت عليه أوربا بأسرها ، وظاهرتها فى تألبها شر أنواع الخيانات

والآن نسأل : ماذا كان أثر ذلك المجد فى نفس نابليون ؟ لقد كان يمكن أن ينسى نشأته ، ويتنكر لعائلته ، ولا يأبه لعوز المعوزين ، ولا يحفل ببؤس البائسين . على أن شيئا من ذلك لم يكن ، وظل نابليون فى حاضر مجده ، كما كان فى ماضى بؤسه ، ينطوى على أصدق الود لذوى قرباه ؛ لا ينسى يد الصنيعة لمن اصطنعها ، ولا تفتر حرارة اخلاصه لأصدقائه ؛ يشعر قلبه حب الواجب ، ولا يتطرق الى ارادته الوهن أو تصيب عزيمته الكلال

ما كان نابليون فى مصاف الملائكة كما تخيله أنصاره ، ولا كان فى عداد الوحوش الضارية كما تصوره خصومه ، وإنما كان رجلا عظيما خالدا فى التاريخ ، وانسانا له عواطفه وأهواؤه ، ورذائله وفضائله

عبد المجيد نافع
المحامى

من دمشق .... إلى بغداد

للأستاذ علي الطنطاوي

لما جاوزنا (أبا الشامات) وأصحرنا ، ونظرت بين يديّ وعن يميني وعن شمالي ، فلم أجد إلا الصحراء الصامتة الرهيبة الموحشة ، ووجدت دمشق التي أحببتها ولقيت فيها من يحبني ، وألفتها وتركت في كل بقعة منها قطعة من حياتي وطائفة من ذكرياتي قد اختفت وراء الأفق ، وتضاءل (قاسيونها) وصغر حتى ما يبدو منه إلا خيال علويّ يلوح في السماء له وميض ولمعان ، أحسست بلوعة الفراق تخفق قلبي خفقاناً شديداً :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى   بليلى العامريّة أو يُراح
قطاة غرّها شرك فباتت   تعالجه وقد علق الجناح

وخالطني حزن عميق وشعور مبهم ، أعرفه من نفسي كلما سافرت سفراً بعيداً — على كثرة ما أسافر وأبتعد — شعور من يجد الموت ويبصره بعينه ! ولم لا ؟ وهل الحياة إلا أن تقيم في المكان الذي تألفه ، وترى الناس الذين تحبهم ، وتصل ماضيك بحاضرك بصورة تراها ، أو نغمة تسمعها ، أو بقعة تحلها ؟ وهل يحيا المرء إلا في الأمكنة والوجوه ، وبالذكريات والآمال ؟ وهل الموت إلا أن ينبتر مما يحيط به ، وينقطع عن كل ما يعرف ، ويقدم على بلد مجهول وحياة غريبة عنه لا عهد له بها ولا نبأ عنده منها ؟ أو ليس للانسان حياة ظاهرة في قيامه وقعوده وطعامه وشرابه وجيئته وذهابه ، وحياة باطنة في أفكاره وذكرياته وآماله وآلامه وميوله وعواطفه ؟ أو ليست حياته الباطنة هي الأصل وهي الأساس ، فلا يحيا إلا بها ولا يقوم إلا عليها ، كما أن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف الأرض المختفية في بطن الثرى ، فاذا انقطع المرء عن عادته ، وابتعد عن أهله وصحابته ، لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب ، كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها ، إذا هي بُتّت من أرضها ، وقطعت من أصلها ، وفصلت عن جذرها . وأحسب أن الله جلّ وعزّ ما قرن الموت بالاخراج من الديار ، وأجزل ثواب المهاجرين في سبيل الله ، التاركين أوطانهم ابتغاء مرضاة الله ، إلا لأن الهجرة ضرب من ضروب الموت ولون من ألوانه ... فان (تعدّدت الألوان فالموت واحد) !

وازدحمت في نفسي صور حياتي في دمشق ، وحبّبت إليّ أضعاف ما كنت أحبّها ، ومرّت أمامي صور إخوتي وأهلي وإخواني ، وذكرت سهراتنا البيتية ، ومجالسنا الأدبية ، وهذه الحفلات الوداعية الكثيرة التي تفضلت فأقامتها أسرة التعليم ، وجمعية التمدن الاسلامي ، والمدرسة التجارية ، تكريماً لي قبل أن أعمل شيئاً أستحق عليه التكريم ، وأفيض فيها عليّ من النعوت ما ليس فيّ ولا أستحق الأقل منه ... وذكرت من دمشق كلّ حبيب إليّ جميل في عيني ، فازددت بها تعلقاً ، ووددت لو أني أبيت فلم أذهب ولم أتغرّب

وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا ، وأحدقت بنا ، وصرنا في قبضتها لا شأن لنا ولا خطر ، وآضت هذه السيارات الفخمة التي كانت تملأ الشارع بطوله وعرضه ، وكانت تعد وهي في دمشق شيئاً عظيما ، أهون على الصحراء من حبة رمل ! وضاعت في أرجائها فلم تعدّ تعدّ شيئاً . وكان قد بلغ مني الحزن ، وحزّت في نفسي لوعة الفراق ، فأغمضت عينيّ ورجعت إلى نفسي ، حتى إذا استروحت فتحتهما وجعلت أحدّق في هذه البادية ، فأرى السيارة تمدو فيها وتسرع حتى نحسّ كأنها تطوى الأرض طياً ؛ وأراها تاهث من التعب ، والبادية باقية على حالها ، كأننا لم نقطع منها شبراً ، وكأننا بعد في أماكننا . ولست غريباً عن البوادي ، فقد عرفتها في رحلتنا تلك . . . إلى مكة . وبقيت فيها سبعة عشر يوماً . ما من ساعة منها إلا وهي أشدّ من عشرة أسفار إلى بغداد ؛ ولكن هذه البادية (بادية الشام) ، تختلف عن جزيرة العرب ؛ ففي الجزيرة مناظر متباينة ، وأراض مختلفة ، فيها الجبل وفيها السهل ، وفيها الوعر وفيها الرمل ، وما في هذه إلا شيء واحد لا يكاد يختلف أو يتغير ، أرض منبسطة ترابية قاحلة ، تمتد إلى الأفق ، كأنها بحر ليس فيه ماء ! فكنا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بحديثنا ، فتقطع الصحراء بصمتها وجلالها حديثنا ، وكنا ننام ونفيق والصحراء هي هي ... حتى قطعنا يوماً كاملاً ، وكان صباح اليوم التالي ، (وللصباح في البادية جمال وروعة ، لا يكون مثلهما في المدن) وبدّدت الشمس

ظلمة الليل ، فتبددت من نفسي ظلمة الكآبة والحزن ، وانزاحت عني نوبة المرض ، (وما العاطفة الرقيقة المؤنثة إلا مرض في الرجال ...) فصحوت ، ونظرت في أمري فاذا أنا لم أغترب ولم أفارق بلدي . وهل بغداد الاداري وبلدي وفيها أهلي وإخوتي ، إن لم تقرر هذه الأخوة الأنظمة ولم تسجل في الدساتير ، فلقد قررها الله من فوق سبع سمواته وسجلها في القرآن : « إنما المؤمنون إخوة » . وليس ينقض ما أبرم الله ، وإن فرقت بيننا شارات على الأرض ، وألوان على الصور ، فلقد جمع بيننا الدين واللغة والعادات ، وألف بيننا تاريخ الماضي ، وأمل المستقبل وألم الحاضر ، ووحد بيننا الدم الذي جاء من نبعة واحدة . فأني ننكر هذه الأخوة وشاهدها فينا ، ودمها في عروقنا ؟

وكيف أجهل بغداد ولها في نفسي مائة صورة ، وفي ذاكرتي عنها ما لا أحصي من الأخبار والتواريخ والأشعار

وبغداد عاصمة الاسلام ، ومشرق شمس الحضارة ، وحاملة راية العصر الذهبي الاسلامي ، وأم الدنيا ، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون . . .

فدى لك يا بغداد كل قبيلة   من الأرض (إلا) خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها   وسيرت رحلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً   ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً   وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا

***

وكنت أرانا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مسلوكة ، في سيارة متينة ، ونمل من طولها ونحن نقطع منها ثمانين أو تسعين كيلا في الساعة ، ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة والماء المثلج ، ونتعب ونحن مضطجعون على المقاعد الوثيرة ، ثم إذا وصلنا الى الفندق نمنا أربع عشرة ساعة ، لنستريح ونسترد الروح فأفكر في أجدادنا أي ناس كانوا ؟ ... وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الابل ، يخوضون لجة الرمل الملتهب ، يلتحفون أشعة الشمس المحرقة ، يتبلغون من الطعام بتمرة ، ويكتفون من الماء بجرعة ، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر منهم عدداً وعُدداً ، فحاربوها وانتصروا عليها ، وفتحوا بلادها ... فأقول : هذا هو فرق ما بيننا وبين أجدادنا ؛ هو الفرق بين الشاب منهم تصيبه ضربة في المعركة ، فتقطع يده من كتفه وتلبث متعلقة به ، فتؤذيه وتعيقه عن القتال ، فيمد الى أصابع يده المقطوعة ، فيدوس عليها بقدمه ، ثم يتمطى حتى يبترها ، ثم يلقيها ويعود الى جهاده ، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شيء هولها ، فيخطر في الشارع كالعروس ليلة الزفاف ، وإذا شاكته شوكة أو لفحته الشمس أوى الى الفراش !

***

ولما كان ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق ، وأشرفنا منه على مثل الليل ، فعرفت لماذا سمى العرب السواد سواداً ، وذهبت أتذكر الفتوح وعهدي بمطالعتها قريب — فأحس بأني أسمو عن زماني وأعيش في أيام الصدر الأول — وأقدر بعد نظر المستعمرين وصحة رأيهم في تعطيلهم التاريخ الاسلامي في مدارسنا ، وتنشئة أبنائنا على الجهل به والبعد عنه ، لما لهذا التاريخ من العمل السحري على بث روح الشرف والنبل والقوة والعزة والفضيلة في نفوس شباب العرب ، ولأنه شمس إذا طلعت كسفت هذه الأنوار الكهربائية التي أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم فبدت تواريخهم سوداء مظلمة . . . وبدا وحده المشرق المنير

وجعلت أتشوق الى بغداد — وأعرض في ذاكرتي صوراً منها حلوة ، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور بأسوارها المستديرة وأبوابها الفخمة — وألمح قبتها الخضراء العالية المشمخرة ، الذاهبة في السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة ، تضطرب صورتها في دجلة ، ثم أذكر ليلة الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٢٩ وقد كانت ليلة مطر ورعد هائل وسيل شديد ، فهوت هذه القبة التي كانت تاج بغداد — وعَلَم البلد ، ومأثرة من مآثر بني العباس عظيمة ، بنيت أول ملكهم وبقيت الى آخر أيام الواثق ، فكان بين بنائها وسقوطها مائة وثمانون سنة

وأرى دار الخلافة — وقد قدم رسل ملك الروم على المقتدر فرسم أن يطاف بهم في الدار ، وليس فيها من العسكر أحد ألبتة ، وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان ، سبعة آلاف خادم ، وسبعمائة حاجب ، وأربعة آلاف غلام — قد جعلوا على السطوح والعلالي وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس ، وقد علقت الستور ، ونظم الجوهر وصف على درج غشيت بالديباج الأسود ، وكان عدد ما علق في قصور المقتدر من الستور الديباج المذهبة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع .. ثمانية وثلاثين ألف متر ، وعدد البسط في الممرات والصحون التي وطىء عليها القواد ورسل صاحب الروم سوى ما في المقاصير والمجالس

من الأنماط اثنان وعشرون ألف قطعة . وأدخل الرسل من دهاليز باب العامة الأعظم الى الدار المعروفة بخان الخليل ، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يدى شاكرى بالبزة الجميلة ؛ ثم أدخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش ، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت من الحير قطعان تقرب من الناس ، وتتشمم وتأكل من أيديهم ؛ ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ، فهال الرسل أمرها ؛ ثم أخرجوا الى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع فى يد سباع وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد ؛ ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث ، وهى دار بين بساتين فى وسطها بركة رصاص ، حواليها نهر رصاص أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مزينة بالديبقى المطرز ، وأغشيتها ديبقى مذهب ، وحوالى هذه البركة بستان بميادين فيه نخل ، عددها أربعمائة نخلة ، طول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبس جميعها ساجا منقوشاً من أصلها الى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة . . . ثم أخرجوا من هذه الدار الى دار الشجرة ، وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، والشجرة ثمانية عشر غصناً ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . . . الى أن أدخلوا الى الخليفة

وملأ نفسى الشعور بعظمة بغداد ، المدينة التى كانت وحدها دنيا ، كان فيها ستون ألف حمام ، فلو أن فى كل حمام خمسة نفر حمامى وقيم وزبال ووقاد وسقاء وذلك أقل ما يكون ، لكان أصحاب الحمامات ثلثمائة ألف رجل ، وكان حيال كل حمام خمسة مساجد ، فلو أن فى كل مسجد خمسة أشخاص ، لكان ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف انسان . وأحصيت الزوارق التى فى دجلة أيام الناصر فكانت ثلاثين ألفاً [1]

(١) تاريخ بغداد

قال الخطيب : « لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير ، فى جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ، وطرزها وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حصر من عدة سكانها »

وبعد فها أنذا على (جسر بغداد[1]) فى نشوة من خمرة الذكرى أذكر ما لا سبيل إلى تلخيصه ، وأحس ما لا طاقة على وصفه ، وقد قال أبو الوليد : قال لى شعبة : أرأيت بغداد ؟ قلت : لا . قال : فكأنك لم تر الدنيا . أما أنا فقد رأيت جسر بغداد ، ورأيت الدنيا ؛ لا أقول إنه أعظم من جسر إسماعيل ، أو أجمل من جسر الزمالك ، ولكن لجسر بغداد سراً آخر ، يعرفه كل من نظر فى كتب الأدب والتاريخ وقرأ عن جسر بغداد ... هذا الذى جازه القواد الفاتحون ، والفقهاء والمحدثون ، والشعراء والماجنون ؛ هذا الذى وقف عليه الرشيد والمأمون ، وأبو حنيفة والشافعى ، والفضل وابن دينار ، ومطيع وأبو نواس ، وعبد الله بن طاهر ويزيد بن مزيد ، وشهد جلال الخلافة ، وعظمة العلم ، وروعة الزهد ، وضحك المجون ، وقوة الجيش .... وجرى عليه نهر التاريخ . . . وتداعت على جوانبه القرون .... هذا الذى كان سرة الأرض !

***

أيا حبذا جسر على متن دجلة ... باتقان تأسيس وحسن ورونق

جمال وفخر للعراق ونزهة ... وسلوة من أضناه فرط التشوق

تراه إذا ما جئته متأملاً ... كسطر عبير خط فى وسط مهرق

أو العاج فيه الآبنوس مرقش ... مثال فيول تحتها أرض زئبق

أما إننى إن أحببت مصر لأن منها أصلى ، وأحببت الشام لأن فيها مولدى ، فانى أحب العراق لأن فيها أجمل ذكر الماضى ، وأحب الحجاز لأن اليها قبلتى ، وأحب كل بلد يقول أهله : لا إله إلا الله محمد رسول الله . لأنه بلدى ، وأهله أهلى

(بغداد) على الطنطاوى

(١) كان المنصور قد أمر بعقد ثلاثة جسور أحدها للنساء ، ثم عقد لنفسه ولحشمه جسرين ، وكان بالزندورد جسران عقدهما مهد ، وكان الرشيد قد عقد عند باب الشماسية جسرين ، فلم تزل هذه الجسور إلى أن قتل محمد ، ثم عطلت وبقى منها ثلاثة إلى أيام المأمون ، ثم عطل واحد ، فصار هنالك جسران يمضى الناس على أحدها ، ويرجعون على الآخر ، وهما اليوم جسران

نبوة المتنبى أيضاً

للأستاذ محمود محمد شاكر

« أخى سعيد الأفغانى : »

وعليك السلامُ ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فانى أشكر لأخى حُسن ظنّه بى فى بعض كلامه ، ومسارعته فى الرد على كلمتى التى نشرتها الرسالة (العدد ١٦٧) . هذا على أنه ليس يجمُلُ بالأستاذ أن يحمّل نفسه تكاليف الرد على مثلى ، فان الذى بيننا من التخالُفِ فى الطبيعة ، والتباينِ فى الجِبِلّة ليقوم فى هذا الأمر مقامَ الردّ . وأيضاً ، فليس مما يحسُنُ به أن يبسُطَ عذره للقراء عن تأخر الرد بجولتـه فى قرى (البقاع) ، وأن قراءته للذى أتيت به من الكلام كانت بعـد عشرة أيام من صدوره .

وليعلم الأستاذُ الجليلُ أنى أحب أن يحملنى على طبيعتى ، وأن يتقبلنى على علتى ، وأن يعرفنى رجلاً شيمتهُ العجزُ ودأبهُ التخلُّف ، فلا قبلَ له بمثل قدرة الأستاذ وقوته على مد الشوْط ؛ هذا على ما ركِّب فى أصل خلقتى من الحـدة والثورة وضيق الصدْر . وليس أدلّ على ما بيننا من تباين الجبلة — من الذى استيقنه الأستاذ وأثبته فىّ من التخلُّفِ والعجز ، والذى رأيته فيه من القدرة والمسارعة ، فهو لم يضق ذرعاً بكل الذى كتبناه ، ولا تخلّف فى رد كلامنا وإسقاطه بالحجة والبيان والبرهان ، فى أوجز لفظ ، وأوزن فكر ، وأدق فهم . . . ثم فى أقل وقت .

وأنا — على نقيضه ، فأنا كما وصفنى الأستاذ حين يقول . « أما أنا فما كنت أظنُّ ! ! أسطراً تذكر عرضاً فى ردّ فكرة تثير (مثل هذا) الفاضل ، فيحمل همّاً يجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً ، ثم ينفثه فى رده الذى تكرم به على مثل هذا الشكل » ، ولا أدرى لم لا يظنُّ الأستاذُ ذلك ؟ ألا فليعلم أخى سعيد أن اثنين وأربعين يوماً ليس كثير دهر على عاجزٍ وجل هيّابٍ متخلّف ، وأن كلمته الصغيرة — التى أثارتنى فحملتُ همها أجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً — كانت مما يقتضينى عامين على الأقلّ فى تقليبها وفهمها ودراستها أواصل ليلهما بالنهار ، ثم فى الاستمداد للردّ ، ثم فى جمع شتات الذهن ، ثم فى نفض الذهول عن العقل والفكر ، ثم فى كتابة ما يُسوِّل لى قليل علمى وتحريره والنظر فى صدوره وأعقابه

وبعدُ أيضاً ، فان أخى سـعيد قد رمانى بقارصاتٍ ، وهو الذى يقول عن كلمتى فى الرسالة : « وصحف الرسالة أحوجُ الى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها الى الدعوى والانتقاض ؛ وأتمنى للأستاذ أن يهجُر هذا الأسلوب فى الجدال ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً ، كما لم يغن (طنينُ) الأستاذ صروف بالاشادة بمزايا الكتاب فى مقدمته » اه ، ولست أدرى ! فامل صحف الرسالة قد غنيت بأساليب البيان العبقرى ، والسخرية النابغة من مثل قوله عن كلمات فؤاد صروف (طنين الأستاذ صروف) ، فالطنين فى هـذه العبارة كلمة بيانية مبتدعة فيها من الفنّ والموسيقى ما يتضاءلُ معهُ ابداع جلّة الكُتّاب والشعراء والموسيقيين .

ومثـلُ الذى يقول : « وأنا أعوذُ بالله من الغرور ، والذهابِ بالنفس ، ومن الجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم ، والعصبية للرأى والهوى ؛ فما يزال الناس — ولله الحمد — يقيسون فضل المرءِ بخضوعه للحق ، واتقانه لعمله ، لا بدعواه و (تبجُّحه) » الى آخر هذا الكلام البليغ الذى لو أراده الجاحظ وجهد فيه ، واحتفَلَ له ، لما تعلّق بذيلهِ ، ولا جرى فى غباره . وأنا أعوذ بالأخ أن يعودَ إلى مثل هذا القولِ ، فانى أكره أن أجزى أخاً لى بالذى أعلمُ أنّه يؤذيه ويرمضُه ، فيذهله عن منازل الصّبر ، ويستفزّهُ عن مواطن الحلم

وليسَ أحب الى نفسى من أن اهتـدىَ الى الحق على علم وبصيرة ، وأن أخضَعَ له على الرضى والغضب ، وأن أعمل على إقراره ما استطعتُ الى ذلك سبيلاً . فلا يتبعنّ — أخى الأستاذ سعيد — ظنّه أنا من أهل الغرور ، والذهاب بالنفس ، والجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم ، والجدال فيما لا جـدوى منه ولا منفعة . وسأنتهى — إن شاء الله — مع الأخ الى النهاية التى يرضاها غير باغ ولا ظالم . فأولُ ما أبدأ به بيانُ ما ورد فى كلمته (الرسالة ١٧٠) من التهافُت فى بعض القولِ ، ثم أعقّبُ على ذلك بذكر نبوّة أبى الطيب ، وتقرير القول فى نفيها على وجه يبلغ بنـا رضاه ، ثم أجيبه عن كل ما سألنيه من شىء ، فان اعترض فى خلال ذلك ، نظرت فى الذى يأتى به ، فان غلبنا

على الحق أسلمنا وبذلنا له الطاعة ، وإن رضى قولنا فهو عند قاعدته التى ذكرها « ألا يحفِلَ نقداً أو رداً إلا إذا كان حقاً ، وسبيله أن يأخذ نفسه به ، ويشكر لصاحبه »

١ — قال الأستاذ سعيد حين ذكر خبر التنوخى ورأينا فى رده : « سأل التنوخى أبا الطيب عن معنى (المتنبى) فأجابه : « إن هذا شىء كان فى الحداثة » وظاهر أنه يعنى التلقيب لا التنبؤ ، فجوابه غير صريح ، وهو كما قال الراوى جواب مغالط » اهـ . والأصل الذى اعتمد عليه الأستاذ فيما ينقل هو (طبقات الأدباء) لابن الأنبارى ، ونص الخبر : ثم « قال التنوخى : قال لى أبى ، فأما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبى ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أولاً ، فجاوبنى بجواب مغالط ، وقال : إن هذا شىء كان فى الحداثة ، فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت » وهذا نصٌّ قد اختصره ابن الأنبارى على عادته . وجاء الأستاذ سعيد فأراد أن يبين وجه المغالطة فى الجواب ، فزعم أن أبا الطيب يعنى التلقيب لا التنبؤ فى جوابه . وكان أولى بالأستاذ قبل أن يؤول الكلام على هذا الوجه أن يتدبر القول وينظر فيه على الصورة التى يؤوله بها ، ثم يبين وجه المغالطة بياناً لا يسقطه العقل . . . يقول التنوخى إنه سأل أبا الطيب عن معنى (المتنبى) ليسمَعَ منه هل تنبأ أو لا — أى هل كان اللقبَ لحادث نبوة كانت منه أم هو نَبْزٌ نُبِزَ به ولُقِّب — فيجيبه أبو الطيب : «إن هذا التلقيب كان فى الحداثة » فأى المغالطة فى هذا الجواب ! وفى المسألة وجهان : إما أن يكون التنوخى قد سأل أبا الطيب مصرحا بالذى أراده فقال له : هل ادعيت فسميت المتنبى فيقول أبو الطيب « هذا شىء كان فى الحداثة » فيكون المراد (النبوّة) ولا شك ، وإما أن يكون قد سأله عن علة تلقيبه بالتنبى ، فيقول : « هذا شىء كان فى الحداثة » فيكون جواب رجل لا يحب أن يمتد فى الحديث فهو يقطعه على سائله ، فهو يقول له : إن هذا اللقب وسببه كانا فى الحداثة ولست براض عن سؤالك ؛ فليس فى هذا مغالطة . ثم إن امتناعه عن ذكر علة غير النبوة فى سبب التسمية دليل على أن النبوة هى العلة فى التلقيب ، لأن اللفظ صريح فى الدلالة على المعنى . وليس يغفُلُ أبو الطيب عن معنى هذا اللقب ، ولا يظن أن الناس غافلون عنه ، فيكون امتناعه عن ذكر العلة مما يوقعهم فى حيرة من تأويل معناه . ثم ما الذى يضر أبا الطيبَ لو كان هذا التلقيب فى الكبر ولم يكن فى الحداثة ؟ فحرصه على تخصيص ما أراد من المعنى بالحداثة ينفى إرادة (التلقيب) ألبتة . وأولى حين يكون التخصيص بالحداثة أن يراد بذلك النبوة ، فان قوة التدفع ، وسمو الطموح ، وإشراف النفس ، وتهاويل الأمل ، هى بالحداثة ألزم ، وهى التى تؤرث نيران الشباب فتدفعه إلى المغامرة والتهدر والمخاطرة على غير هدى ولا بصيرة ، حتى يركب بها صاحبها الحدَثُ الغرُّ كلَّ مركب من الحماقة ، ويرد بها كل مورد من الغرور ، فلا يرعوى عن أن يدّعى مالا مطمَع له فيه ولو كانَ النبوّة . وقول التنوخى بعد جواب أبى الطيب : « فاستحييت أن أستعصى عليه فأمسكت » دليل على أن الرجل اكتفى باشارة أبى الطيب إلى حادث النبوة ، وأمسك عن الذى كان يريده أولاً من التصريح فى إثبات ما كان من أمره فى ادعاء النبوة

واختصار ابن الأنبارى خبر التنوخى هو الذى دفع الأستاذ إلى هذا التأويل . وأصل خبر التنوخى أنه قال : حدثنى أبى قال : أما أنا فانى سألته بالأهواز سنة أربع وخمسين وثلثمائة — عند اجتيازه بها إلى فارس فى حديث طويل جرى بيننا — عن معنى المتنبى ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا ، فأجابنى بجواب مغالط لى ، وهو أن قال : هذا شىء كان فى الحداثة أوجبته الصورة ! فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت » فالمغالطة فى قوله « أوجبته الصورة » والصورة ههنا الصفة على اصطلاح أهل الكلام ، وصفة الحداثة لا توجب ادعاء النبوّة ، فهذا هو وجه المغالطة . فلما رأى التنوخى — وهو شابٌّ لم يعدُ السابعة والعشرين من عمره ، وأبو الطيب إذ ذاك شيخٌ قد نيَّف على الخمسين — ما أصاب هذا الشيخ من الحرج وضيق الصدر حتى لجأ إلى المغالطة فى التعليل ، وتبرير فعلته على السفسطة ، استحيا أن يستقصى على هذا الشيخ فأمسك عن الذى يؤلمه ويغيظه ويضع من كبريائه ويحط من شيخوخته ، ويلجئُه إلى ركوب الاحالة فى المنطق ، والفساد فى التعليل

٢ — ويقول الأستاذ سعيد : « يورد الأستاذ على حديث أبى علىّ بن أبى حامد شبهة واحدة بعد أن يقرّ باحكامه ، ويقول

عنه فى ص ٤٩ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكامُ فى شأن من يدعون النبوّة ... الخ »

وقد أطال فى بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا . (سبحان الله يا سعيد ! !) والذى فى كلام أبى علىّ هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما أدعاهُ ورجوعه إلى الاسلام » ، وجلىٌّ أنهم استتابوه من دعوى النبوّة فرجع بذلك إلى الاسلام ، أما الوثيقة فهى ببطلان علويته ، وبهذا تزول شبهة الأستاذ (!!) فان من المألوف أن تكتب الوثائق فى اثبات الأنساب ونفيها » اهـ

وعجبٌ أمر الأستاذ سعيد فى حرصه على تأويل الكلام بما لا وجه له ولا أصل ؛ وهو فى نقله هذا النص قد اعتمد على كتاب ابن الانبارى ، وهو مولعٌ باختصار الأخبار (واختزالها) وهذا تمام خبر أبى على بن أبى حامد :

« أخبرنا التنوخى ، حدثنى أبى ، قال حدثنى أبو علىّ بن أبى حامد ، قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون — وأبو الطيب بها إذ ذاك — أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها ، إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية ، فقاتله وأنفره وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب . وحبسه فى السجن حبساً طويلاً ، فاعتَلَّ وكاد أن يتلفَ حتى سُئِل فى أمره فاستتابه . وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاهُ ، ورجوعه الى الاسلام ، وأنه تائبٌ منه ، ولا يعاودُ مثلَهُ ، وأطلقه » . فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية فى هذا الخبر ، ولا فى غيره مما رُوى عن أبى علىّ بن أبى حامد هـذا ، فكيف يتأتى لكَ أن تقحم العلوية فيه ، وهو لم يذكرها فيه ولم ترد عنه فى خبر غيره ، ثم تعمد إلى الكلام فتؤوّلَ ببعضهُ على النبوّة وبعضهُ على العلوية فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة ؟ ورحم الله أبا عثمان الجاحظ ، فلو أنه أدركَ عصرنا هذا لقال فى ذلك أمثل مما قال فى ابراهيم النظام[1] ، فنصُّ الخبر مبينٌ عن أن أمير حمص كتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها (١) بأن ما ادعاه باطلٌ — وهو النبوة — (٢) وأنه رجع إلى الاسلام (٣) وأنه تائبٌ منه (٤) وأنه لا يعاودُ مثله . فهذه أربعةٌ فى قَرَن كانت فى هذه الوثيقة ، فكيف تسوّغُ عربيّةُ الكلام للأستاذ سعيد تأويله وبيانه ؟ فلو سلمنا للأستاذ سعيد بالذى ذهب إليه لكان سياقُ الكلام هكذا : « حتى سئل فى أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ادعائه العلوية ، وأنه رجع الى الاسلام ، وأنه تائبٌ (منـه) ، وأنه لا يعاود مثله » فعلى أى الكلام عطفت جملة قوله « وأنه رجع الى الاسـلام » والى أى مذكور يرجع الضمير فى قوله « وأنه تائب (منه) » ؟ وكيف ترد أوائل هذا الكلام على أواخره ليستقيم على عربيته ؟ !

إن أخى الأستاذ سعيدا ليأخذ من الكلام ما يشاء ويدع ما يشاء ، وبذلك (تزول شبهة الأستاذ) أو كما قال .

٣ — ثم يقول : «عرض الأستاذ لرواية الهاشمى التى فيها : (كان أبو الطيب لما خرج الى كلب وأقام فيها ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى الى أن أشهد عليه فى الشام بالتوبة وأطلق) وهـذه الرواية تمنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقـة ببطلان انتسابه للعلويين وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ... » اهـ

يقول الأستاذ سـعيد إن هذا الخبر الذى رواه يعنى (أنه ماتخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوّةِ بقى على دعواه الأولى) والخبر يقول إنه (ادعىّ العلوية ، ثم ادّعى النبوّة ، ثم عاد يدعى أنه علوى » ، والعربية تقول إن هذا النص لا يمكن تأويله على الوجه الذى أراده الأستاذ فان لها ألفاظاً ، وإن لألفاظها معانى ، وإن لمعانيها حدوداً ؛ فاخراج المعنى عن حده إخراج للفظ عن معناه ، وإخراج اللفظ عن معناه إخراج له عن العربية . يقول الخبر : « ثم عاد يدّعى أنه علوىّ » فيقول الأستاذ مؤوّله ، ومعنى ذلك « ثم بقى على دعوى العلوية » !! ثم يقول الأستاذ : « ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم (أولا نفهم ، فالأمر بعد هذا سواء) أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ؛ وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين » . ففى الخبر الذى قبل هذا أقحم الأستاذ العلوية ولا ذكر لها فيه وجعل الوثيقة المذكورة فيه يراد بها دعوى العلوية ، وفى هذا الخبر الذى رواهُ ولا ذكر للوثيقة فيه أقحم الوثيقة التى يراد بها الاشهاد عليه فيها ببطلان انتسابه للعلوية التى ادعاها ، وذكرها الخبر مرتين . فهذا أروعُ

(١) وصفنا الأستاذ سعيد فى (الرسالة) بمقالة أبى عثمان فى ابراهيم النظام ، فراجعها !!

ماوقع لى من القـدرة على الجمع بين الروايات (كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث ، وأنا أستحى أن أشرح هـذا فى مجلة (الرسالة) ... مما يدرسهُ الطلاب المبتدئون) (١)

وهذا الخبر أيضاً اعتمد الأستاذ فى نقله على (اختزال) أبي البركات (ابن الأنبارى) فى طبقات الأدباء . وسياقُ الرواية هكذا : « وقد كان المتنبي لما خرج إلى كلب، وأقام فيهم ادَّعى أنه علوىٌّ حسنىٌّ ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوىٌّ ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب فى الدعويين ، وحبس دهراً طويلاً وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » . وقد كان هذا النصُّ أمثل من (مختزل) ابن الأنبارىّ للذى يعتمده الأستاذ من التأويل ، وهو أحفل له فى استخراج مادة الجدل فى التفسير والتوجيه . على أن هذا الخبر هو كما وصفناهُ فى كتابنا ص ٤٨ « عجيبٌ لا يفرغ من العجب من اختصاره وتداخله » . فمن ذلك أنه صريحٌ بيّنٌ فى الدلالة على أنه قد أشهد على أبي الطيب مرتين : (الأولى) إشهادٌ عليه بأنه قد كذب فى (الدعويين) و (الآخرة) استتابةٌ وإشهادٌ عليه بالتوبة

ففى المرة الأولى ذكر ابن شيبان الهاشمى (دعويين) أشهد أبو الطيب على نفسه بالكذب فيهما ، فان أراد (بالدعويين) دعوى العلوية ودعوى النبوّة جميعاً كان كلامُهُ كلُّهُ خلطاً متداخلاً ، فانه ليسَ يكفى فيمن ادعى النبوّة أن يشهد على نفسه بالكذب ، بل لا بُدَّ معهُ من الاستتابة والرجوع الى الاسلام والاقرار به ، فان لم يعط ذلك قُتِل ، فان كان فعل معهُ ذلك وتاب وأقرّ فما قوله بعد ذلك « وحُبس دهراً طويلاً (سنتين) وأشرف على القتل (ثم) استتيب ، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » ولم أعيدت استتابته ؟ أيكون هذا كله لغواً باطلاً من القول !!

فان أراد (بالدعويين) ادعاء العلوية فى المرة الأولى والمرة الآخرة فالأمر فى ذلك على خلاف المعقول . أيقدم الوالى الاشهاد بالكذب فى دعوى العلوية ، وهى لا تخرج من الاسلام ، ولا يكفر بها مدعيها ، ولا يقتل من أجلها إن أصر عليها ، ويدع ادعاءه النبوة فلا يقتله أو يستتيبه إلا بعد أن يحبسه دهرا طويلاً حتى يشرف على القتل ، فيومئذ يستتيبه ويشهد عليه بالتوبة ! !

ولفساد هذا الخبر وجوهٌ أخرى ، ولكنه على أى وجهيه أدرته ، لا يسوغ للأستاذ أن يقول فيه « وهذه الرواية تمنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية » إلا أن يلغى معانى الكلمات التى وردت فيه ، أو يحيلها عن وجهها ؛ فتكون ثم ، وعاد ، كلمات مغسولة من المعانى ، ثم يزيد على ذلك أن يزيد فى الكلام معانى لألفاظ لم تكن فيه كقوله « وحين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية » ولو أراد الأستاذ أن يتأول هذا الخبر على وجه مقارب لما خرج له إلا أن يقول فيه « إن أبا الطيب تخلى عن دعوى العلوية ، وحين تركها بقى على ادعاء النبوة حتى استتيب فأطلق» وهذا محال

وليعلم الأستاذ أنى تركت له أبواباً من القول توطىء له أن ينفذ الى الاعتراض ، فليعترض قولى بما شاء . ولكنى أسأله أن ينظر فى اعتراضه أولا ثم فى الخبر بعد ، ثم فى كلامى آخراً ، فلعله يجد فى ذلك ما يمنعه من الاعتراض ويقنعه بالصواب . وأسأله أيضاً أن يتحرى فى فهم الأخبار ما تقتضيه عربية الكلام حتى تستقيم له المعانى ، وتتجه به الآراء الى الحق والهدى إن شاء الله

(الكلام بقية) **محمود محمد شاكر**

(١) الرسالة عدد ١٧٠ ص ١٦٢١

مشرقيات

في الأدب العربي الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكي

الأستاذ بجامعة لينينجراد

— ٢ —

وبعد كل من الشيخ محمد عبده (١٨٤٣ — ١٩٠٥) وجورجي زيدان (١٨٦١ — ١٩١٤) في مقدمة الكتاب الذين امتاز بهم هذا العصر . نعم إن أولهم لم ينتج شيئاً من المؤلفات الأدبية ، لكن ذلك لا يدعو إلى انكار الدور الهام الذي لعبه ، فبفضل جهوده استقر رأي المسلمين على السير في طريق التجديد ، وازداد نفوذ الحركة الأدبية شيئاً فشيئاً ، بحيث أثر على الشطر الأكبر من المصريين . وظهرت في خلال ذلك أنواع أدبية جديدة كالرواية التاريخية . واصطبغت هذه الأنواع بصبغة خاصة تختلف كل الاختلاف عن نظيراتها ، فكان الكاتب يوجه جل اهتمامه إلى تنسيق الألفاظ ، إلى ان جاء المنفلوطي (١٨٧٦ — ١٩٢٤) فاتجه بهذا النوع إلى طريقه الكمالي

أما المدرسة السورية المتأمركة فقد برزت إلى الميدان في خلال السنوات العشر الأولى من القرن العشرين ، وهي على ما نظن كانت أقوى المدارس الأدبية العربية الحديثة من حيث استقلال شخصيتها . وزعماؤها : أمين الريحاني (١٨٧٩) وجبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) الذي كان يمثل طابع جهودها . فقد رأس بمدينة نيويورك جماعة « الرابطة القلمية » ، وكانت تلك الجماعة الأدبية تنشر دعوتها على صفحات مجلة « السائح » التي تولى إدارتها عبد المسيح حداد . ومن أهم الصفات المميزة لهذه المدرسة ، أنها قطعت كل صلة بأساليب الأدب القديم وبطريقة الكتابة العادية ، واصطفت الأساليب القلمية المتطورة ، أساليب الرسائل النثرية ، والشعر المنثور المنمق إلى حد التكلف . وقد نال كثيرون من أنصار هذه المدرسة شهرة ذائعة في العالم العربي (حتى تونس والحجاز) فتأثر الكتاب بأسلوبهم . ومنهم أيضاً الشاعر الروائي ميخائيل نعيمه (١٨٨٩) والشاعر رشيد أيوب (١٨٦٢) وإيليا أبوماضي (١٨٨٩) ونسيب عريضه ... الخ . وللمدرسة السورية الأمريكية بالبرازيل مركز خاص وأهمية محلية لا تأثير لها في البلاد العربية . والشعر هو الفضل المختار عند أنصار هذه المدرسة التي قوامها : الياس فرحات (١٨٩١) ، ورشيد سليم خوري (١٨٨٧) ؛ وفوزي المعلوف (١٨٩٩ — ١٩٣٠) . وقد شرع شكري الخوري (١٨٧١) في محاولة طريفة ، هي استعمال اللهجة السورية الدارجة في الكتابة الأدبية ، ولكن أحداً لم ينسج على منواله

وقد انتهت سيطرة المدرسة السورية المتأمركة بانتهاء الحرب العظمى ، فانقطعت الصلة بين روادها وبين الحياة الراهنة في العالم العربي ، ورجع بعض زعمائها (كالريحاني ونعيمه) الى وطنهم الأول . وقد عادت الآن زعامة الأدب الى مصر وتركزت في المدرسة الموسومة بمدرسة المصريين . وترجع بوادر هذه الزعامة إلى عام ١٩٠٧ حين تألف حزب الأمة وأنشأ « الجريدة » وتولى رياسة تحريرها أحمد لطفي السيد مترجم « الأخلاق » لأرسطو ومدير الجامعة المصرية الآن . وفي عام ١٩٢٢ التف الكتاب المجددون حول جريدة « السياسة » التي يتولى إدارتها أحد الكتاب العصريين الذائعي الشهرة : محمد حسين هيكل بك (١٨٨٨) ، وأهم ما تمتاز به هذه المدرسة التعمق في فكرة الأدب وفي حاجات رجاله المتزايدة يوماً بعد يوم ، وهي تختلف عن المدرسة السورية المتأمركة في أنها توجه جل جهودها إلى الأدب العربي القديم ، وتبدي شغفاً خاصاً بالنقد وبتاريخ الأدب . وفي مؤلفات أنصار هذه المدرسة ، نلاحظ للمرة الأولى أن روح الوطنية المصرية الخالصة تحل — عن عمد وإدراك — محل القومية العربية . وقد وجهت هذه المدرسة عناية خاصة إلى « الأقصوصة المصرية » ، كما استطاعت أن تكسب شهرة ذائعة وأنصاراً مخلصين متحمسين في سائر الأقطار العربية ، بفضل اتساع نطاق الصحافة وانتشارها . وهكذا عادت مصر فتولت الزعامة للمرة الثانية في تاريخ الأدب العربي الجديد ، وستظل محتفظة بهذه الزعامة ، مرتكزة على دعائمها بثبات أعظم مما كانت عليه في نهاية القرن الماضي

٢ — أنواع خاصة

ا — الشعر : لا يزال الشعر أكثر الأنواع انتشاراً وأدقها

محافظة ، شأنه فى عصور الأدب العربى القديم . فنى جميع الأقطار العربية نجد شعراء لا عداد لهم . لكن تاريخ الشعر فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ليس إلا تاريخ تجديد شباب الشعر القديم بطرق معدلة كل التعديل . فبينما كان الشعراء فى الماضى يقلدون شعر عصور الانحطاط نراهم الآن ينسجون على منوال المتنبى والشعراء العباسيين وأحياناً شعراء الجاهلية . وقد لعب ناصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧٦) دوراً هاماً فى سوريا ، إذ ظل محافظاً دقيقاً ، لكنه كان مالكا لناصية اللغة . وظهرت بوادر الأثر الأوربى فى دوائر أخرى ظهوراً واضحاً ، فرأينا فرنسيس مراش (١٨٣٦ — ١٨٧٣) الشاعر الحلبى ، يحاول التعبير عن أفكار فلسفية اجتماعية فى قصائد يسودها روح التشاؤم . أما فى مصر فقد جاء تجديد شباب الشعر العربى متأخراً نوعاً ، فاستهل الحركة محمود سامى البارودى (١٨٣٩ — ١٩٠٤) واسماعيل صبرى (١٨٥٤ — ١٩٢٣) ، وقصائد كل منهما تطابق كل المطابقة أسلوب الشعر العباسى أو القديم ، بل إنهما كانا يشيران أحياناً بوضوح الى القصائد الأصلية المعارضة ، ونلاحظ أن الحياة تدب بقوة فى مؤلفات الشعراء المصريين المتعاقبين أمثال شوقى (١٨٦٨—١٩٣٢) ، ومحمد حافظ ابراهيم (١٨٧١—١٩٣٢)

قبل الحرب العظمى كان شوقى شاعراً بالمعية (شاعر الأمير) وكان من نوع ممتاز ، قديراً فى صناعة اللغة وصياغة الألفاظ ، لكنه حصر شعره فى دائرة الأسلوب التقليدى . وبعد الهدنة أخذت شهرته تتطاير فى أنحاء العالم العربى وأطلق عليه لقب «أمير الشعراء» . وقد حاول شوقى فى السنوات الأخيرة أن يخلق المأساة «التراجيدى» فى الأدب العربى . أما حافظ إبراهيم فهو من أبناء الشعب ولذا انحصر ميله فى المواضيع السياسية والاجتماعية مع النسج على منوال المتقدمين من وجهة الاسلوب . وثالث الشعراء المصريين المعروفين هو خليل مطران ، وقد ولد ببعلبك بسوريا حوالى سنة ١٨٧١ وأبدى نبوغاً ممتازاً فى المصنفات الغنائية والروائية ذات الاسلوب الطليق الحر والمنوع (خصوصاً فى القافية والوزن) . وهنالك كتاب من الجيل الجديد نشر دواوين طليبة كعباس محمود العقاد المولود فى سنة ١٨٨٩ ، وابراهيم عبد القادر المازنى المولود فى سنة ١٨٧٧ ، واحمد محرم المولود فى سنة ١٨٧٧ ، واحمد رامى المولود فى سنة ١٨٩٢ ، ومصطفى صادق الرافعى المولود فى سنة ١٨٨٠ ، واحمد نسيم المولود فى سنة ١٨٧٨ . وفى الأيام الأخيرة أظهر الجمهور ميلا إلى تذوق شعر أحمد زكى أبى شادى . ومن الصعب أن نتكهن بالشاعر الذى سوف يحمل زعامة الشعر العربى بعد شوقى وحافظ

وفى العراق جمع الشعر فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أغرب الصفات على اختلافها وتباينها . فقد ازدهرت التقاليد الأدبية القديمة فى المدن الكبرى كبغداد والموصل . وقاد حركتها شعراء أفذاذ أمثال عبد الغفار الأخرس (١٨٧٣ — ١٨٠٥) وعبد الباقى العمرى الفاروقى (١٧٨٩ — ١٨٦١) كما أن أسرة الألوسى لعبت دوراً هاماً فى هذا الميدان . وفى النجف الأشرف وكربلاء ، مدينتى الشيعة المقدستين ، ازدهر الشعر العباسى وشعر البادية الصحيح فى الأوساط الأدبية الشيعية . ولم نصل الى معرفة أصول هذه المدرسة إلا بفضل ما نشره أحمد عارف الزين زعيم الطائفة الشيعية بصيدا (سوريا) . وكان أبرز زعمائها ابراهيم الطباطبائى (١٨٣٢ — ١٩٠١) . وفى العراق كما فى مصر — حاول المجددون إعادة الشباب إلى الشعر العربى القديم . وأتيح لنا أن نقتبس هذه الظاهرة بوضوح فى شعر عبد المحسن الكاظمى (١٨٦٥ — ١٩٣٤) . وبالنظر إلى أنه يقيم فى مصر منذ نهاية القرن الماضى فقد خصص بعض قصائده لسرد الحوادث المصرية . وهنالك شاعران آخران جديران بالذكر وهما يمثلان الاتجاه الجديد خير تمثيل ، أولهما جميل صدقى الزهاوى (١٨٦٩ — ١٩٣٦) ومعروف الرصافى (١٨٧٥) . وقد كان الزهاوى مشربا إلى أقصى حد بالروح الفلسفية ، وكان يطلق لنفسه الحرية التامة فيما يتعلق بالأسلوب . ولم يتردد مطلقاً فى ابتكار الاوزان والقوافى المختلطة . وكثيراً ما نظم الشعر المرسل حيث يسير على الوزن دون القافية . بعكس الرصافى إذ حصر شعره فى دائرة الاسلوب التقليدى ، لكنه يمتاز بعبقرية الشاعر الواقعى ، سواء فى شعره الغنائى والوصفى ، أو السياسى والاجتماعى ؛ وقد جاوزت شهرة هذين الشاعرين حدود بلادهما . أما فى سائر الاقطار العربية ، فالشعر رغم وفرته وكثرة إنتاجه ، لا تتعدى أهميته الحدود المحلية

ومن شعراء سوريا سليم عنحورى (١٨٥٥) وهو شيخ مسن على اتصال دائم بمصر ومتشبع بالآراء العصرية إلى حد بعيد ، وعيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩) شاعر وعالم من نوع وحيد ،

وهنالك طبقة من كتاب الجيل الحديث اشتهروا الآن فى الأوساط الادبية ، نخص بالذكر منهم : شفيق جبرى (١٨٩٥) وخليل مردم (١٨٩٥) وحليم دموس (١٨٨٨) وأحمد عبيد ، ومحمد البزم (١٨٨٧) ، ومحمد الشريقى (١٨٩٦) وسليمان الأحمد المعروف باسم « بدوى الجبل » الخ

وفى المهجر كثير من الشعراء الذين تطبع مؤلفاتهم وتذاع فى بلاد أخرى ، بخلاف الأمر فى سائر الأقطار العربية حيث لا تتعدى شهرة الشعراء النطاق المحلى ولا يقدر مؤلفاتهم سوى مواطنيهم (مثال ذلك محمد الشاذلى خازندار بتونس) . أجل ، إن الشعر الغنائى العصرى منوع المقاصد ، مشبع بروح الفن الناضج الدقيق ، ولكن المجال لا يزال متسعاً لابتكار أساليب أرحب مدى . وقد ظهرت ترجمة « الالياذة » للبستانى فى عام ١٩٠٤ لكنها لم تسفر إلا عن بعض محاولات تقليدية ، أما الشعر الشعبى « الزجل » الذى تستعمل فيه العامية بدلاً من الفصحى ، فالواقع أنه لم ينتج سوى مؤلفات فكاهية انتقادية ، شأنه كما كان فى الأزمنة السالفة (أسعد رستم بأمريكا) ، وأكثرها يرمى الى أغراض سياسية (عمر الزعنى بسوريا)

ب — القصة والأقصوصة : لم تنشأ القصة أو الأقصوصة من أصل عربى كالمقامات والقصص الحماسية بل ترعرعا بتأثير الأدب الأوربى المباشر . وقد ظهرت أولاً القصة التاريخية التى لم تصل الى شأو الكمال من الوجهة الأدبية . كان أول بزوغ هذا النوع فى محيط البستانى بسوريا ، وعنى به ابنه سليم (١٨٤٨ — ١٨٨٤) بقصد اتخاذه وسيلة فى التربية والتعليم . وفى عام ١٨٨٤ وضع جميل المدور (١٨٦٢ — ١٩٠٧) أخبار أيام هارون الرشيد (؟) فارتفع بهذا النوع إلى مكانة أسمى ، وإن كانت تلك « الأخبار » أقرب إلى الآثار منها إلى الأدب ، وقد بلغت القصة التاريخية ذروتها فى مؤلفات جورجى زيدان ، حيث كان يطالع القراء بقصة فى كل سنة تقريباً ، قصة جديدة من سلسلة تاريخية طويلة الحلقات

ولقد ولد زيدان مؤرخا بطبعه ، فأراد أن يتخذ من قصصه وسيلة لجعل التأريخ فى متناول العامة ، وأن يهيئ للجمهور مطالعات طريفة سهلة ، فالغرض الذى كان يرمى اليه هو التعليم والتثقيف ، ولذا تراه لا يعلق أهمية تذكر على المسائل الأدبية البحتة . وقد نالت مؤلفاته اقبالاً منقطع النظير ، بل إنها كانت فاتحة عهد جديد فى الأدب العربى الحديث

(يتبع) ترجمة محمد أمين حسونة

على أطلال الماضى

للسيد ابراهيم أدهم الزهاوى

ما بكائى لزينب وانتحابى   وسؤالى ربوعها وجوابى
ووقوفى بها وقوف حجيج الـ   ـبيت لولا تفردى واكتئابى
وملامى النوى على ما أحالت   من رسوم وقوضت من قباب
سُنة تلك سنها شعراء   ما بهم من زمانهم غيرُ ما بى
إن أولى الربوع بالدمع سحًّا   أربع المجد والعلا والغلاب
سفهت نفسها الليالى اللواتى   سحبت فوقها ذيول الخراب
أربعٌ لا تزال منها بقايا   أفلتت من حبائل الأحقاب
شوهتها يد البلى ككتاب   رث إلا عنوان ذاك الكتاب
أنا صبٌّ بها وكل محب   تتصباه أربع الأحباب
كلما طاف طائف من هواها   فى فؤادى وجدته فى خطابى
لا قرضت القريض إن لم أذد فيـ   ـه ذياداً يغنى عن القرضاب
عن عُلا معشرى وأى علاء   كعلا معشرى الرفيع الجناب
كيف لا يعتلى وبانيه بانٍ   كلَّ نجم فى الكائنات الرحاب

***

يا أبا القاسم الذى حار عقلى   فى مدى عقله وتاه حسابى
كيف لا تنحنى الأكابر إكبا   راً لأسمى طبيعة فى إهاب
أى باب فتحته لأولى الأل   باب مستغلق من الأبواب
ومنارٍ نصبتها فى طريق   طالما ضلت مسير الركاب
إن مَحياك فى الحقيقة محيا   كل حى يسير فوق التراب
فأعاديك فى الورى كموالي   ك يدورون حول ذاك الشهاب
أين دنياهمُ التى هى دنيا   أشبهت ذات جِنّة فى يباب
طال أظفارها التى لم تعهّدْ   ها يمين ورث حسن الثياب
فتعهدتها بيمنـــــك حتى   عاودتها شوارد الألباب
فعليها طلاسم تقتنيها   فتقيها رجماً على الأعقاب
ها مراقى الحياة فانظر أكانت   تترقى لو لم تزل فى احتجاب
تنبث الصخرة العظيمة آبا   داً إذا لم تدفع بأيد صلاب

أم يقولون كان ينبغ منهم   من يعيد الحياة بعد ذهاب
والذى تشهد البرية طرًّا   أن مسعاك فوق قدر الطُّلاب
قد ترحلت عن مغاوير أدوا   كل دَين مؤجل فى الرقاب
ضربوا الأرض إذ أصرت على البغـ   ـى وهبت إلى رؤوس الحراب
فشفوها من دائها بدواها   قد يكون الدواء ضرب الرقاب
ذاك دور لن تشهد الأرض دوراً   مثله والقشور غير اللباب

***

وبدت لى أمية فبدت لى   دولة المكرمات والأحساب
وسألت الدهياء كيف ترقت   للثريا فلم يكن من جواب
أين مُلكٌ أبو سليمان يرعا   ه فيرعى صيابة الأنساب
عبقرى، زمانه عبقرى   كل شىء يجرى به بنصاب
ما حسام الحجاج لو كنت تدرى   غير تعويذة من الأوشاب
لم يكن مثله بقبضة مروا   ن فمرت أيامه فى تباب

***

واجتبى الله للأعاريب أملا   كاً حراصاً على اتباع الصواب
واجتباهم من هاشم من بنى الـ   ـعباس من خير دوحة فى انتساب
جل هارون أن تكون كهرو   ن ملوك تسربلت بالسراب
عجم يعجمون عود الرزايا   ثم لا يهتدون للأسباب
ذاك نجم يدور فى الفلك السا   بع لا فى مهابط التَّوراب
سجدت للذى يريد لياليـ   ـه سجود العبدان للأرباب
واتقته الآباء فى كل أرض   واتقتها الأبناء فى الأصلاب
مالك الملك قائماً بالذى يط   لب عدلاً عقابه كالثواب
تحسن الرحمة الوثيرة إلا   لجنوب تقلبت فى الكذاب
فأَنمها على الظُّبى لا توثق   من ذئاب تريك صدق الكلاب
إنما تُعصم البلاد بسيف   نائم قائم مجيب مجاب
خطة فى سنى الضحى ضيعوها   فأضاعوا مِلاك مُلك رُحاب
اشتراك فى الموبقات وخوف   من شراراتها على الأثواب
وهى الريح زعزع تحمل النا   ر فمن ذا ينجو من الالتهاب

***

واستفاقت بغداد بعد دهور … أنفضت ظهرها من الأوصاب
استفاقت فلم تجد لا فتى الصمـ … ـصام فيها ولا فتى المحراب
واستجارت جاراتها فإذا الجا … رات يرزحن مثلها بالعذاب
فدعت دعوة أبى الله إلا
أن يكون الجواب فصل الخطاب
نحن إبان نهضة بسوى الوحـ … ـدة لا ترتضى من الأحزاب
ضاع كل الطلاب إن لم تكن أوَّ … لَ شيء نريده فى الطلاب
لا تصح الأعضاء فى الجسم ما لم … تك فيه مشدودة الأعصاب
تمرع الأرض بالربيع على مقدا … ر ما التمَّ فوقها من سحاب
وتضيع الأنهار فى لجج البحـ … ـر ويكفى العباب شر العباب
وأحق الشعوب بالوحدة الكـ
برى شعوب ذاقت وبال انشعاب

(بغداد) … ابراهيم أدهم الزهاوى

بعد هجر طويل

بقلم العوضى الوكيل

أثرتِ فى نفسىَ ماضى الذِّكَرْ … وهجتِ فيها ما انطوى واندثر
وهجتِ أحلاماً عِذاب المنى … كالنور، أو كالظل، أو كالزَّهَر
إن لم أنل منها، فحسب النهى … مرآك، من رىٍّ لهذا النظر!

***

عودى إلى النفس، وكونى بها … لهفة شوق ساعرٍ ذى شرر
عودى إلى النفس، وأحيى بها … ما كان من نجوى بها أو سَمَر
يا طالما عاد إلى داره … مسافر من بعد طول السفر!
وأمتعينى بحياة الهوى … إمتاعك العين بوجه أغر
بل جدّدينى ... أنت محفوفة … بجِدَّةٍ ليست لحسن القمر
فى كل يوم فيك معنى هوى … يخالف المعنى الذى قد غبر
وفى كل يوم صورة فذة … غير الذى شاهدته من صور
أأنت من شاهدتها أمس؟ أم … أنت سواها؟ أصدقينى الخبر

***

عودى، فقد عدت إلى جنتى … وعادنى الهم وطول السهر
عودى، فما أحراك أن ترجعى … أمس الينا، عبقرى الغُرر
أمس الذى نُيِّحَ فى قبره … بهجتينا، لا ثباً فى الحفر
أحييتُه عندى بتذكاره … وربما تحيى الفقيد الذِّكر
فلتنسخى لذاته فى غدٍ … وعشت للقلب الوفى الأبرّ

العوضى الوكيل

نكبة فلسطين

بقلم عبد الوهاب أدهم

البلدُ المقدسُ الطاهرُ … عاث به ذو حنقٍ غادرُ
ومهبط الوحى غدا بلقعا … يجول فى أرجائه الكافر
والجنة المئناف قد صوّحت … لم يشدُ فيها البلبلُ الساحرُ
فمن لها؟ قد أجدبتْ أرضها … ولم يُغثها العارض الماطرُ

***

هذى فلسطينُ على شجوها … ليس لها، من أهلها، ناصرُ
أعداؤها قد استباحوا الحمى … لله ذياك الحمى الزاهر!
كم قتلوا من نسوة زانها … عفافُها وذيلها الطاهر
كم صرعوا من فتيةٍ ذنبها … إيمانها ودينها الغافر
كم روّعوا الأطفال فى مهدها … وغادروها جفنها قاطر

***

العُرْب فى أوطانهم عصبة … يغمزها العاجمُ والكاسرُ
يقذفها الغربىّ فى مهمه … فمن لها؟ لقد طغى الماكر؟
الله يا غافل عن دهره … دهرك لا يغلبه السادر
والحق لا يناله ضارع … كفاه لم يصحبهما الباتر
فكن جسوراً فاتكا قادراً … ما فاز إلا الفاتك القادر!

***

هذى فلسطينُ اشتكت ضيْمها … وسمعكم عن صوتها واقرُ
فمن لها؟ قد أجدبت أرضها … ولم يغثها العارض الماطر

(دمشق) … عبد الوهاب أدهم

***

القصص

الكذب

للقصصي الروسي نيكولا يفتش اندريف

ترجمة الأديب محمود البدوي

« أنت كاذبة ! أنا أعرف أنك كاذبة ! »

« لماذا تصيح هكذا . . ؟ أمن الضرورى أن يسمعنا كل انسان ؟ »

وكذبت مرة أخرى فما كنت أصيح كما ادعت، وإنما كنت أتكلم على أتم هدوء ورقة . أمسكت بيدها وأخذت أحدثها فى لين هادىء ، والكلمة السامة : « كذب » تفح حولى فحيح الحية الصغيرة

« واستطردت تقول : « أحبك ... ويجب عليك أن تكون على ثقة تامة بى . . ألا يقنعك هذا ؟ » وقبلتنى .. ولكنى لما أردت أن أطوقها بذراعى وأضمها الى صدرى لم أجدها : . كانت قد أفلتت منى وبارحت الممر المظلم ، فتبعتها الى الغرفة التى أخذ الحفل البهيج فيها يقوض خيامه ، ومن أين لى أن أعرف — فى مكان كهذا — أين أنا ! لقد طلبت منى المجىء اليه فجئت ، ورأيت القوم يدورون حولى مثنى مثنى طول الليل . وما تقدمت إلى أحد ولا خاطبنى انسان . كنت هناك غريبا عن كل الناس ، جلست فى ركن يقرب من العازفين على الآلات الموسيقية وفم البوق النحاسى الضخم يوجه فى خط مستقيم الى ... وسمعت فى ناحية شخصاً سجيناً يزمجر ويضحك بعد كل دقيقة فى هزة وخشونة ويصيح :

« هو . . . هو . . . هو . . . »

وكانت تقرب منى من حين الى حين سحابة بيضاء عطرة . كانت هى .. ولم أكن أدرى كيف دربت بمهارة فائقة ملاطفتى وهى متقية أعين الناس ، ففى ثانية خاطفة ضغط كتفها على كتفى ، وفى لحظة قصيرة خفضت بصرى فاستطعت أن أرى الجيد الأتلع والدثار الأبيض الضيق العروة .. ولما رفعت طرفى رأيت جانب الوجه الأبيض الصارم الهادىء كوجه الملاك المفكر فوق مقابر الموتى ، فوق مقابر المنسيين من الموتى ، رأيت عينيها .... كانتا نجلاوين سا كنتين حبيبتين تتعطشان للنور . . تحف بهما دائرتهما الزرقاء ، وقد برق فيهما إنساناها فى قتامة . وكنت كلما نظرت الى هاتين العينين أراهما على حال واحدة لاتتغير : سوداوان عميقتان لايدرك كنههما ، وإذا ما نظرت اليهما ولو نظرة قصيرة اشتد وجيب قلبى ، ولكنى لم أشعر قط بمعنى اللانهاية بمثل هذا العمق وهذا الخوف الذى شعرت به الآن ؛ ولم أعرف مطلقا قوتها كهذا الحد القوى الجارف . شعرت خائفاً متألماً أن حياتى كلها غدت كشعاع ضئيل من النور ابتلعته عيناها ، حتى أصبحت غريبا عن نفسى فارغا أجوف غالباً فى عداد الموتى ... ثم بارحتنى وخلفتنى وحيدا وأخذت معها حياتى .. حياتى كلها ، ورقصت ثانية مع رجل وضىء الوجه طويل متعجرف ، أخذت فى انقباض وحزن أنعم فيه البصر وأدرس أجزاء جسمه ، وشكل نعليه ، وعرض كتفيه المرتفعتين ، وخصل شعره المتموج المنتظم . والرجل بنظرته غير العابئة ولا المكترثة ولا الباصرة يلصقنى بالحائط ، أصبحت فى نظره مخلوقا تافها كالحائط نفسه

ولما أطفئت الشموع تقدمت نحوها وقلت :

« حان وقت العودة .. سآخذك الى المنزل »

فاستغربت وقالت : « ولكنى ... ذاهبة معه ! »

وأشارت الى الرجل الطويل الجميل الذى لم ينظر إلينا مطلقاً ثم جرتنى الى غرفة خالية من الناس وقبلتنى . فقلت بهدوء ورقة :

« إنك كاذبة »

فأجابت : « سنتقابل اليوم ... لا بد أن تجىء ... »

ولما ركبت العربة الى المنزل ، كان الصباح الضبابى الأخضر

قد لاح فوق السطوح العالية ، ولم يكن فى الشارع كله إلا أنا وسائق ؛ وجلس الرجل متجمماً يخبئ وجهه من الريح ، وأنا جالس خلفه منكمشاً فى معطفى ومغطياً وجهى حتى عينى . وكان للسائق أفكاره ولى أفكارى ، وخلف الجدران الكثيفة المحيطة ألوف من الناس يغطون فى النوم سابحين فى أحلامهم وأفكارهم ... فكرت فيها ، وفى أكاذيبها ، وفى الموت الرهيب ، وبدا لى أن هذه الجدران المحيطة بعد أن أضاءتها تباشير الصباح ، كانت تنظر الى كمخلوق ميت ، وهذا هو السبب الذى جعلها جامدة معتدلة هكذا . ولم أكن أعرف فى أى شىء يفكر السائق ، ولم أكن أدرى ما الذى يحلم به أولئك المختفون وراء الجدران ، ولا كانوا هم يعرفون ما أفكر فيه وأحلم به ...

وعلى هذا المنوال من التفكير والسكون والتأمل زحفنا فى الشوارع الطويلة المستقيمة ، بينما يفضض نور الصباح أعالى السقوف ، وكل ماحولنا كان أبيض ساكناً . وقربت منى سحابة بيضاء عطرة ... وأخذ إنسان سجين يضحك عند أذنى ويصيح :

« هو ... هو ... هو ... »

***

لقد كذبت . لم تبر بوعدها ولم تجىء ، وكان انتظارى قدومها عبثاً ، كان وهما باطلاً وأملا خائباً ... وأخذ الغبش يهبط من السماء القاتمة أشهب بارداً متجمداً ... ولم أعد أعرف متى يتحول الغبش إلى مساء ، أو متى ينقلب المساء ليلاً أسود . فكرت فيه كله كليل طويل حالك فوقه ليل ، وأخذت دائماً ، بخطى الانتظار المنتظمة الرتيبة ، أروح وأجىء فى الطريق ، ولم أشأ أن أقرب من منزل حبيبتى الشاهق ، ولا من الباب الزجاجى الأمامى الذى بدا لى شاحباً فى ظل سقفه الحديدى ، ولكنى رحت بنفس الخطى المنتظمة أذرع الجانب الآخر من الشارع . رائحاً غادياً ... رائحاً غادياً ... وعندما كنت أواجه المنزل لا أستطيع أن أنزع عينى من الباب الزجاجى ، فاذا ما بعدت عنه كنت غالباً أقف وأدير رأسى وأسارقه الطرف ، وهنا يخز الثلج الساقط وجهى بوخزاته الحادة ... كانت هاته الأبر الثلجية طويلة نافذة ، حتى إنها نفذت الى قلبى ومزقته وهو المعنّى بالشوق المضنى والانفعال الشديد للانتظار الخائب ! وهبت الريح الباردة من الضوء فى الشمال الى الظلام فى الجنوب ، وصفرت وعوت ، ولعبت على السقوف المتجمدة وخلصت نفسها منها وضربت وجهى بسفعات حادة من الندف الثلجية ، وخشخشت كما يخشخش الرمل على مصابيح الشوارع الفارغة حيث يرتجف اللهب الأصفر ويقضقض من البرد وينحنى أمامها .

كم أسفت على هذا اللهب المنفرد الذى يعيش فى الليل فقط ، وفكرت فى الحياة التى ستقف حركتها فى الشارع بعد لحظات ، وفىّ بعد أن أغادر المكان وتبقى الندف الثلجية تهطل وتضربه بضرباتها ، واللهب الأصفر يستمر راجفاً منحنياً فى كنف الوحدة والبرودة المحيطة به

انتظرتها فلم تجىء . وبدا لى أنى وهذا اللهب المنفرد متشابهان ، وكل ما بيننا من خلاف أن مصباحى لم يكن فارغاً كمصباحه ، وأخذ الناس يظهرون من وقت لآخر فى المكان الذى ذرعته بخطواتى يكبرون فى صمت وسكون ، ويتضخمون ورائى ، ويبدون سوداً ضخاماً حذائى ، ثم يختفون فجأة كالأشباح السنجابية حول ركن بيت أبيض قائم هناك ، ثم يتقدمون ثانية نحوى من حول الركن ويذوبون فى المسافة الرمادية المفعمة بالثلج الصامت المتحرك مدثرين فى معاطفهم الضخمة حتى انعدمت أشكالهم واختفت أجسامهم ، سائرين صامتين على غرار واحد يشابهوننى ، وفكرت فى أن رهطاً من هؤلاء الناس كانوا يمشون مثلى رائحين غادين منتظرين مترقبين راجفين فى صمت .... ويفكرون تفكيرهم المبهم الحزين

انتظرتها فلم تجىء ... ولم أدر لم لم أعول وأذرف الدمع السخين وأرسل العبرات الغزار ؟ لم أدر لم لم أبك فى ألم وحزن ؟ لم أدر لم ضحكت وكنت سعيداً جذلاً طروبا ؟ قبضت أصابعى الى راحتى بقوة كأنها المخالب ، وتخيلت أنى أقبض بشدة على المخلوق السام .... الحية .... الكذب .... فالتفت على ذراعى وعضت قلبى وأصابنى من سمها الزعاف الدوار الشديد . بدا كل ماحولى أكاذيب مجسمة ، وامحى الحد الفاصل بين الحاضر والمستقبل ، بين الحاضر والماضى ، امحى الحد بين الوقت الذى كنت فيه فى غيابات العدم ، والوقت الذى بعثت فيه فى هذه الحياة الدنيا ... وفكرت فى نفسى — سواء وجدت أو لم أوجد — كانت أبداً قبل أن أوجد وبعد أن وجدت متسلطة على كيانى وجثمانى . ومن الغريب على أن أفكر فى أن لها اسما وجسما وأن لكيانها ووجودها نهاية وبداية ... ليس لها اسم مطلقاً ، وإنما كانت دائماً المخلوقة الكاذبة ، والتى تعد

ولا تفي بوعدها أبداً ... لم أدر لماذا هكذا . ولكنني ضحكت ، وغاصت الابر الحادة في قلبي ، وضحك عند أذني إنسان سجين :

« هو ... هو ... هو .. »

وفتحت عيني ورأيت نوافذ المنزل الشاهق المضيئة ، وأخذت النوافذ تحدثني بألسنتها الزرقاء الحمراء بكل هدوء :

« إنها تخونك في هذه اللحظة ، فبينما أنت تتجول ذارعاً الأرصفة مترقباً حضورها معذباً كئيباً ، إذا بها وكلها جمال ونور وإشراق ... وخيانة ، جالسة هنا تسمع همسات الرجل الصبوح الطويل الذي احتقرك وازدراك . إنك إذا اندفعت إلى داخل المنزل وقتلتها ستعمل عملاً عظيما . لأنك ستقتل الكذب »

وقبضت يدي بشدة وقد أمسكت بسكين وأجبت ضاحكا :

« أجل ... سأقتلها ... »

ولكن النوافذ نظرت إلى بوجوم وقالت في حزن :

« إنك لن تقتلها أبداً.. لأن الآلة التي في يدك هي الكذب بعينه ، كقبلاتها تماماً »

واختفت الظلال المترقبة الصامتة وبقيت وحيداً في هذه البقعة الباردة ، أنا وألسنة اللهب المنعزلة التي ترجف من البرد والخيبة .. وأخذت الساعة في قبة الكنيسة القريبة تدق ، وكان صوتها المعدني الحزين يرتجف وينتحب ويتمدد . ويفقد نفسه في الثلج المدوم المجنون الهاطل ؛ وأحصيت الدقات وضحكت ، دقت الساعة الخامسة عشرة . كانت قبة جرس الكنيسة قديمة بالية كساعتها . ومع أن الساعة كانت سائرة على منوال حسن ، فإنها كانت تدق غالباً أكثر من اللازم ، حتى إن الرجل العجوز الذي كان يحركها صعد إلى القبة ليقف بيديه اللسان الضارب . علام كانت تكذب هذه الأصوات الراجفة الحزينة التي يخنقها الظلام الضبابي ؟

وانفتح الباب الزجاجي مع آخر دقة كاذبة للساعة ، وهبط الرجل الطويل نفسه الدرجات . وعلى الرغم من أني رأيت ظهره عرفته لأني كنت قد شاهدته أمس بوقاحته وغطرسته ... عرفت مشيته وكانت اليوم أخف حركة وأكثر ثباتا منها بالأمس . . لقد غادرت من قبل هذا المنزل كما غادره هذا الرجل الآن . إنها الطريقة التي يمشي بها الرجال الذين لا تزال على شفاههم قبلات المرأة الكاذبة

***

هددت ... رجوت ... قضقضت بأسناني ...

« قولي الحقيقة ... »

فسألتني ، ووجهها جامد كالثلج ، وحاجباها مرتفعان في استغراب ، ومن عينيها يطل انسانان سوداوان سريّان هادئان ، لا يسبر غورهما :

« ولكن ... هل كذبت عليك ؟ »

وكانت تعرف أني لا أستطيع البرهان على كذبها ، وأن كل أبحاثي وأوهامي وجهودي في معرفة الحقيقة ستذهب هباء بعد كلمة واحدة منها ... كلمة كذب واحدة ... ولقد ترقبت هذه الكلمة وندت عن فمها أخيرا ، وظاهرها يتلألأ بالصدق على أن باطنها كان مظلما قاتما ... « أحبك ... ألست كلي لك ؟ »

وكنا بعيدين عن المدينة ، والحقول المغطاة بالثلج ترنو إلى النوافذ المظلمة ، وفوقها الظلام مخيم ، وحولها الظلام جاثم ، الظلام الكثيف الجلد الصامت الساكن ، ولكن الحقول كانت تلمع بضوئها المكتنز كوجه جثة في الظلام ... وأضاءت شمعة واحدة في الغرفة الرحبة الشديدة الحرارة ، وعلى ضوئها الأحمر انعكست الحقول الميتة ...

« أود أن أعرف الصدق ، بغض النظر عما يسببه لي من حزن ؛ ربما مت بعد سماعه ... ولكن خير للمرء أن يموت من ألا يعرفه . أرى الكذب يطل من عينيك . قولي الصدق ، وسأذهب بعد ذلك بعيدا عنك إلى الأبد »

ولكنها كانت صامتة ، والنظرة التي في عينيها ، النظرة الجامدة المتفرسة نفذت إلى سويداء قلبي وأخرجت أعماق نفسي وأبدتها للعيان ... وأخذت بفضول غريب أمتحنها وأنعم النظر فيها ، ثم صحت بها :

« أجيبي ... وإلا قتلتك ! »

فأجابت بهدوء : « اقتلني ... بعض الأحيان يضيق المرء ذرعا بالحياة ... هل تستطيع الوقوف على الحقيقة بالتهديد ؟ ! »

فجثوت على ركبتي وضغطت على يدها ، وأخذت أتوسل اليها وأرجوها أن ترحمني وتقول الصدق

فقالت ، وقد وضعت يدها على شعري : « مسكين ... مسكين ... »

فرجوتها : « ارحميني ... أود الصدق ... أتلهف عليه ... »

ونظرت إلى جبينها الناعم ، وفكرت في أن الصدق الصراح

هناك .. وراء هذا الفاصل الرقيق ، فوددت بجنون لو هشمت جمجمتها لأراه ؛ وهنا تحت هذا الصدر المرمرى الأبيض كان قلبها ينبض ، فوددت فى خبل لو مزقت هذا الصدر بمخالبى لأرى ولو مرة القلب البشرى العارى ... وكان لهب الشمعة المحدد كالسنان يشتعل بعيداً ساكناً لا يتحرك ، والجدران المظلمة قد غابت فى القتامة المحيطة ، كان كل شىء يبعث على الأسى والوحشة والرعب

وقالت : « مسكين .... مسكين »

وارتعش اللهب الأصفر وتشنج ، وضرب لونه إلى الزرقة ، ثم تمايل واحتضر ... وطوانا الظلام فى جوفه ، ولم أعد أستطيع أن أرى وجهها ولا عينيها ؛ وكانت ذراعاها تطوقان رأسى ... لم أعد أحس بالكذب ، وأغمضت عينى وغدوت لا أفكر ... ولا أعيش فى هذه الدنيا ... وإنما فنيت بكليتى فى لمسات يديها ، فى الاحساس اللذيذ ، فى النشوة العجيبة التى هيمنت على حواسى ومشاعرى ، وبدا الصدق فى عملها هذا ووضح وبان ... وجاء من أعماق الظلام همسها وانياً غريباً مخوفاً :

« ضمنى أليك .. أنا خائفة ... »

وخيم الصمت ثانية ... ثم همست مرة أخرى فى صوت خافت جازع :

« إنك تود الصدق ... وهل أنا أعرفه ؟ حتى أنا ... أود أن أعرفه ... احمنى ... أوه ... أى رعب ! ! »

وفتحت عينى وقد أخذ الظلام الشاحب يهرب من النوافذ العالية ، ويتجمع على الجدران ، ويختبئ فى الأركان ، ولاح من النوافذ شىء ضخم فى بياض الموتى ... كأن عين انسان ميت تبحث عنا ... كأن شخصاً ضمنا فى قبضته الباردة ... فالتصق كلانا بالآخر ونحن نرتجف ، وهمست :

« أوه ... ... ما أفظع هذا ! »

* * *

لقد قتلتها ! ...

قتلتها ... ولما تمددت كتلة بشرية لا حس لها ولا حركة على النافذة ووراءها الحقول البيضاء تمتد وتتشعب وضعت قدمى على جسمها وانطلقت أضحك ، وأقهقه ... ولم يكن ضحكى ضحك المجنون ، لا ... لقد ضحكت لأن أنفاسى تخلصت وصدرى استراح ، ولأن فى أعماق نفسى السعادة والسلام والفراغ ...

لقد انمحت من قلبى الدودة التى كانت تنخره ، وانحنيت وأخذت أتطلع إلى العينين الميتتين ، عينان نجلاوان تتعطشان للنور ، بقيتا مفتوحتين شبيهتين بعينى تمثال من الشمع ، العيون المستديرة القاتمة التى تبدو مغطاة « بالميكا » أستطيع الآن أن ألمسهما بأصابعى ، وأفتحهما وأسبلهما ولا أرهب شيئاً ما ، لأن شيطان الكذب والشك مات من هذين الانسانين السوداوين المبهمين إلى الأبد ، مات من هذين الانسانين اللذين كثيراً ما ارتويا من دمى

ولما قبضوا على انطلقت أضحك جذلاً ، وكل من رآنى عد فعلتى عملاً وحشياً مرعباً ؛ كانوا يديرون ظهورهم نافرين متراجعين ، وأخذ بعضهم وقد روّع يوجه إلى ضروب اللوم والتعنيف الشديد ، على أنهم لما بصروا بحالى المرح الطروب ، شحبت وجوههم ، وسمرت أقدامهم ، وقالوا : « مجنون »

ويبدو لى أن هذه الكلمة هدأت ثائرتهم وأقرت هائجهم ، لأنها أعانتهم على حل اللغز . كيف وأنا المحب الوامق أقتل عشيقتى ، وفى الوقت نفسه أضحك ؟ على أن رجلاً بادناً أحمر الوجه طروبا سمانى اسما آخر . ولشد ما ساءنى منه هذا حتى اسود فى عينى النور ، النور الذى كان أمامى

« مسكين ... » قالها فى عطف لا تشوبه المرارة ، لأنه كان بادناً طروباً :

« مسكين »

فصحت فى وجهه : « لا تقل هذا .. .. لا تسمنى بهذا الاسم »

ولم أدر لم صحت فى وجه الرجل ، ما كنت بالطبع أرغب فى قتله ، ولا حتى فى لمسه ، ولكن القوم الذين أذهلهم الحادث وأخذونى كمجنون ومجرم ، انقلبوا أكثر رعباً وفزعاً ، وصاحوا بطريقة جعلتنى أضحك مرة أخرى

ولما قادونى بعيداً عن الغرفة التى تمددت فيها الجثة قلت ثانية فى صوت عال ملتفتاً إلى الرجل البادن الطروب :

« أنا سعيد ... أنا سعيد »

وكان هذا حقاً

* * *

رأيت مرة فى صباى نمرا أرقط فى حديقة الحيوانات ، لفت نظرى وشغل تفكيرى ، لم يكن كالحيوانات الأخرى التى نامت فى حماقة وأخذت ترى الزوار بالنظر الشزر . وإنما مشى فى قفصه فى خط مستقيم من ركن الى ركن فى دقة حسابية عجيبة ! كان فى كل مرة يرجع الى المكان الذى بدأ منه ، وفى كل مرة يحك فروته الذهبية فى حاجز القفص ورأسه الحاد المفترس مطأطئ ، وعيناه تتطلعان الى الأمام ، ولم يتجه قط بنظره الى الناس ... والناس يتجمعون حول قفصه طول اليوم ، متحدثين صاخبين ، وهو يواصل تجولاته ولا ينظر إليهم مطلقاً . وقليل من الوجوه فى هذا الحشد كانت باسمة ، وكثرتها كانت عابسة بل حزينة وهى ترقب هذه الصورة البشمة وتتحول عنها بزفرة حارة . وعند ما كانوا يبارحونه كانوا يلقون عليه نظرة فضولية أخيرة وهم عاجزون عن الفهم ، ثم يصعدون الزفرات ! كأن هناك شيئاً مشتركا بين هؤلاء الرجال الأحرار وهذا الوحش السجين . وأخذت بعد ذلك كلما ذكر الناس الخلود وتحدثت الكتب عن الأبدية ، أفكر فى هذا النمر الارقط ، وأتصور أنى أعرف الخلود وعذابه

لقد غدوت فى محبسى الحجرى نمراً أرقط . . . سرت فى المكان مفكرا على خط واحد فى عرض محبسى من ركن الى ركن ، وفكرى يتجول معى فى خط قصير أيضاً . أفكار ثقيلة وطأتها على ، خيل إلىّ بأنى لا أحمل رأساً على كاهلى ، وإنما أحمل الدنيا كلها على عاتق .. وكانت هذه الأفكار تحوى كلمة واحدة ولكن ما أكبرها وأهولها كلمة . وما أعلقها بغيابات الأقدار !

« أكاذيب . . . » هذه هى الكلمة

وأخذت هذه الكلمة تفح مرة أخرى من كل ركن ، ثم التفت حولى . . ولكنها لم تعد حية صغيرة كما كانت ، وإنما انقلبت ثعباناً ضخماً مفترساً تلمع عيناه . أخذ يلسعنى بلسعاته . ولما صحت متألماً خرج من فمى صفير كريه .... كصفير الثعابين ، كأنما احتشد صدرى بضروب الزواحف

« أكاذيب »

مشيت غارقاً فى أفكارى والأرض المقيرة الناعمة الخضراء ... غدت فى عينى هاوية شفافة سحيقة مالها من قرار ، وأصبحت قدماى لا تحسان ببرودة الحجر تحتهما ، وتصورت نفسى أسبح فى علو شاهق فوق الضباب والظلام ، ولما خلص صدرى من الزفرة السامة ... من هناك ... من القاع ... من هذا الحجاب الرقيق الذى مع رقته لا تنفذ إليه العين ، دوى ببطء صدى مروع ... كان الصدى بطيئاً جداً كأنه يعبر آلاف السنين ، وهو فى كل دقيقة وزفرة يفقد بعض قوته . أدركت بأن هناك فى باطن القاع كانت الرياح الهوج التى تعصف بالأشجار تصفر ... ولكن صفيرها وصل الى أذنى كأعقاب الأخبار السيئة تحمل فى طياتها كلمة واحدة قصيرة :

« أكاذيب »

هذا الهمس الوضيع أخذ بخنق وحبس أنفاسى ، فألصقت قدمى بالأحجار وصحت بأعلى صوتى :

« لم تعد هناك أكاذيب ... بعد ... لقد قتلت الأكاذيب »

وتحولت عامداً بوجهى لأنى كنت أعرف أن الجواب سيجيء من أعماق الهاوية السحيقة . وكان الجواب :

« أكاذيب ... »

أنت ترى أن الأمر هكذا ... لقد ارتكبت خطأ جسيما . قتلت المرأة ... ولكنى خلدت الكذب . لاتقتل المرأة إلا بعد أن تنتزع — بكل وسائل التعذيب والنار والوعيد — الصدق من أعماق نفسها . فكرت فى هذا وأنا أسير فى محبسى من ركن الى ركن

***

لقد حملت معها الصدق والكذب الى مكان مظلم مرعب ... وهل أذهب إليه ... ؟ هل أذهب الى هناك ... وعند عرش إبليس سأقبض عليها وأجثو على ركبتى وأبكى وأقول :

« أرينى الصدق »

رباه ... رباه ... هذا أيضاً كذب ... الظلام هناك ... وفراغ القرون ... والخلود أيضاً ... ولكنها ليست هناك ... ليست فى كل مكان ... بقى الكذب ... إنه خالد أزلى سرمدى . . . أحسست به فى كل ذرة فى الهواء ... وعندما أنشقه أنشق معه فى صدرى الضعيف فحيح الثعابين فيمزقه ... فيمزقه ...

أواه ... أى جنون عندما يطلب الرجل الصدق ... وأى عذاب وألم ؟

رباه ... أنقذنى ... ... أنقذنى !!

محمود البدوى

البريد الأدبي

كتاب جديد عن الشاه

يعتبر جلالة رضا خان عاهل إيران من أعظم قادة العصر وملوكه ؛ ومن أعظم زعماء الاصلاح في الشرق ؛ وقد استرعت شخصيته وأعماله الباهرة اهتمام كثير من الكتاب والمؤرخين المعاصرين ، فصدرت عنه عدة كتب بمختلف اللغات ؛ ومن ذلك كتاب صدر أخيراً بالألمانية عنوانه : رضا شاه Reza Schah بقلم الكاتب الألماني « هوبرت ملتسج Hupert Melzeg » ، ويستعرض المؤلف في كتابه حياة الشاه منذ مولده في سنة ١٨٧٨ في قرية علشت من أعمال مزنداران ، ووفاة والده وهو طفل في نحو الخامسة ، وتربيته على يد أخيه الجنرال نصر الله خان . ومما يذكر عن الشاه أنه تلقى تربيته العسكرية في فرقة القوزاق الروسية الشهيرة حيث اشتهر بالفروسية والبراعة في الأعمال العسكرية ؛ وفي سنة ١٩٢١ حينما اضطربت شؤون فارس وتجاذبها النفوذان الروسي والانكليزي زحف رضا خان على رأس كتيبة من الجند الوطنيين على طهران ، وعاون على تأليف وزارة وطنية برآسة السيد ضياء الدين ، ودخلها هو وزيرا للحربية ؛ ومن ذلك الحين يقوى نفوذ رضا خان في الحكومة وفي توجيه السياسة الايرانية ، وكان معظم الجيش من ورائه يشد أزره ، وما زال يتحين الفرص حتى قام بضربته الأخيرة ، وتولى العرش سنة ١٩٢٥ ، وأقصى عنه أسرة قاجار الملوكية التي سقطت إيران في ظلها الى الحضيض

ويصف المؤلف شخصية الشاه ووسائله في الحكم ، ويقول إنه يؤثر سياسة الروية والتريث على سياسة الاندفاع والتسرع التي يأخذ بها الكماليون في تركيا ؛ وهو قد استطاع أن يحرر بلاده من النفوذ الأجنبي ، وأن يلغي المعاهدات الأجنبية المجحفة ، وكذلك الامتيازات الأجنبية والمحاكم القنصلية ، وكل ما يعترض السيادة القومية ، ولكنه قطع هذه الخطوات في روية وتمهل ، ونجح إلى أبعد حدود النجاح ، وأبدى براعة سياسية تخلق بأعظم الزعماء والساسة ، ثم عمد رضا خان بعد ذلك إلى الاصلاحات الداخلية فأصلح الدستور والقوانين ، وأدخل النظم والعادات العصرية في المجتمع الايراني ، ومع ذلك فلم يعمد إلى العنف أو الاندفاع وإنما سار في كل ذلك بطريقته الرفيقة المستنيرة معاً

ويكتب المؤلف بأسلوب قوي واضح معاً ؛ ويعتبر مؤلفه خير ما أخرج في موضوعه في العهد الأخير

ترجمة ضحى الاسلام الى الفارسية

وصل إلينا بالبريد ترجمة الجزء الأول من « ضحى الاسلام » تأليف الأستاذ الجليل أحمد أمين مترجماً إلى اللغة الفارسية ، وقد قام بترجمته الأستاذ عباس خليلي صاحب جريدة « اقدام » ، وطبع بطهران طبعة أنيقة على ورق مصقول جيد ، وهو يقع في نحو ٤٥٠ صفحة ، وسنعود إلى الكلام عن الترجمة في مقام آخر

الطب والحركة الهتلرية

عقد أخيرا في مدينة درسدن مؤتمر للطب والطب الطبيعي ، وقد ألقى خلاله الجراح الألماني الكبير الدكتور فرديناند زاور بروخ خطاباً استرعى الأنظار بقوته وجرأته ؛ ذلك أنه حمل فيه على سياسة النظام الجديد (أعني النظام الهتلري) في محاربة الجامعة الطبية القديمة ، وأطرى المدرسة القديمة التي كانت قائمة قبل حكم النازي ؛ وقال إنه يجب ألا ننسى أن هذه المدرسة هي التي اشتركت في تكوين أعظم الأساتذة ، وفي معتركها سقط كثير من الأساتذة والطلبة

ودعا الدكتور زاور بروخ إلى وقف المناقشات العقيمة ورد الهدوء إلى الجامعة ، لأن الهدوء ضرورة لا بد منها لمتابعة المباحث العلمية ؛ وحمل على الجهود الجديدة التي تبذل لاحلال الطب الطبيعي مكان الطب الفني ، وقال إنها جهود زائفة من الوجهة العلمية ، وأنه لا يوجد طب دون درس ودون تقاليد ،

وأن العلم لا يمكن أن يفنى فى فكرة قومية ، بل إن مملكة العلم لا تقف عند هذا العالم ، ويجب أن يبقى العلم مخلصا لغايته الأبدية ، وهى البحث عن الحقيقة باخلاص.

وقال أيضا إن أسلحة الذهن ضرورية لمستقبل الأمة كضرورة الأسلحة المادية ، وإن الفلسفة هى امتياز للرجال الناضجين ، وليست ميدان الأحداث الناشئين

وقد أحدثت خطبة العلامة الكبير امتعاضا فى الدوائر النازية ، وصدرت الأوامر للصحف النازية بعدم اذاعتها ؛ ولكنها أذيعت مع ذلك فى جميع الصحف الأجنبية

فرنسا وثقافة البحر الأبيض المتوسط

تهتم فرنسا دائما بأن تساهم فى توجيه الثقافة فى حوض البحر الأبيض المتوسط مساهمة قوية ، ففى رومة وفى أثينا ، وفى مصر وسوريا ، وفى تركيا ، تقوم معاهد فرنسية كبيرة لنشر الثقافة الفرنسية ؛ وفى موناكو (جنوب فرنسا) تقوم أكاديمية خاصة تسمى أكاديمية البحر الأبيض المتوسط ، مهمتها أن تساهم فى تأدية هذا الدور الذى تضطلع به فرنسا ، وقد أذيع أخيرا أن هذه الأكاديمية أنشأت معهداً عاليا للتربية يسمى «كلية البحر الأبيض المتوسط» تعقد فيه محاضرات ودراسات عالية فى الحضارات والثقافات الخاصة بأمم البحر الأبيض المتوسط منذ العصور الغابرة إلى يومنا ، ويقوم على توجيه هذه الدراسات عدة من علماء فرنسا ومفكريها الأعلام ، وفى مقدمتهم المسيو بول فاليرى الشاعر الكبير ورئيس مركز هذه الدراسات ، ومسيو شارل فيلاى ، وأندريه بونيه العالم الأثرى ، وجان دستيه المتخصص فى آداب البحر الأبيض ، وغيرهم من كبار الأساتذة والمفكرين

ويرجع اهتمام فرنسا بتوجيه الثقافة فى أمم البحر الأبيض المتوسط إلى عهد الصليبيين ؛ وقد بدأت فرنسا بهذه المهمة فعلا فى بلاد لبنان منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، ولعبت المعاهد الفرنسية فى تثقيف الشعب اللبنانى دوراً كبيراً

وفاة ملك النور

توفى أخيراً فى سانت بلتن من أعمال النمسا ملك النور بطرس فادوس Peter Vados ؛ وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن ملك النور ولكن الواقع أن النور (أو الغجر) وهم فى أواسط أوربا ولا سيما فى بولونيا والمجر ورومانيا كثرة تبلغ نحو المليون لهم ملك يختارونه بالانتخاب ، وقد كان فادوس آخر ملوكهم ، وهو من النور النمسويين ؛ وعند وفاته ازدحمت سانت بلتن بالوافدين عليها من زعماء النور وأعيانهم من جميع أنحاء النمسا والمجر ، وغمر منزل الملك المتوفى بالزهر ، وتولى السهر على جثته طبقاً للعادات النورية اثنا عشر من خاصة أسرته ؛ واقتيد نعشه إلى القبر فى موكب حافل ، وكان المشيعون رجالاً ونساء يرتدون الثياب الرسمية ، وهم زهاء ألف من مختلف الطبقات والأعمار . ولما ووری التراب أخذ النساء ينشدن الأغنية المحزنة وفى تقطيع شعورهن طبقاً للعادة ؛ ثم طاف الجميع بالقبر حفاة الاقدام . ولما كان قانون النور يقضى بانتخاب الملك الجديد فى مدى ثلاثة أيام من وفاة سلفه ، وكانت السلطات النمسوية قد منحت المشيعين أربعا وعشرين ساعة فقط ، فقد سهر الجميع طول الليل وأتموا انتخاب ملكهم الجديد

تصحيح خطأ

وقع فى مقال (حول نبوة المتنبى) المنشور فى العدد الماضى تحريف مطبعى رأيت أن أنبه إليه لما فيه من تغيير للمعنى :

ص	عمود	سطر		
١٦٢١	١	٢	فن الغريب	صوابها فن القريب
١٦٢٢	٢	١٨	الانتقاض	« الانتقاص

الكتب

الشيخ عفا الله

تأليف الأستاذ محمود تيمور

١٧٥ صفحة — قطع متوسط — طبع المطبعة السلفية — غلاف أنيق فاخر — خمسة قروش

بقلم محمود البدوى

يكتب محمود تيمور القصة منذ أكثر من عشر سنوات ، ويوجه إليها كل عنايته وجهده وفنه . والذى قرأ مجموعة تيمور القصصية الأولى ثم يقرأ « الشيخ عفا الله » الكتاب الذى بين أيدينا الآن يرى مبلغ ما وصل إليه المؤلف من توفيق ، ويرى أيضاً أنه يتطور ويخطو نحو الكمال الفنى خطوات سريعة ، وأنه كلما تقدم فى السن أكسبته الحياة تجارب ، وصقلت فنه وهذبت أسلوبه ، ووسعت دائرة فكره ، وفتقت ذهنه ، وعمقت إحساسه ، وجعلته دقيق الملاحظة بعيد النظر ، حتى أصبح من نوابغ كتاب القصة القصيرة فى مصر ومن الآخذين بيدها القابضين على زمامها الذين يوجهونها خير توجيه وأحسنه

والذى يعرف تيمورا ، وهو يقف من أبطال قصصه موقف اللاحظ الشاهد دائماً ولا ينزل الى الميدان أبداً ، قد يدهش عند ما يراه يصور الطبقات الدنيا من الشعب ، ويتغلغل فى حياتها ، وينفذ الى أعماق نفوسهم ويتكلم بلسانهم ويصور أحلامهم وأمانيهم تصويراً دقيقاً فيه الكثير من الصدق .. على أن هذه الدهشة لا تلبث أن تنقلب الى إعجاب وتقدير متى أدرك القارئ أن تيموراً وإن كان ينظر الى هذه الطبقة من بعيد ولكنه يراها بعيني قلبه ، ويحس بالعطف والشفقة والحنان على هؤلاء التعساء المساكين الذين يعيشون أبداً فى الظلام مستسلمين صاغرين

وتيمور قصصى واقعى يصور الحياة المصرية على بساطتها وسذاجتها أبدع تصوير ، وقد يحيد بعض الأحيان عن الواقع ويميل الى المغالاة فى بسط الحوادث ليخلق المفاجأة ويرهف حس القارئ ويأسر لبه ، على أن ذلك لا يكون إلا فى سبيل فكرة سامية جليلة

وأول ما يسرك فى هذا الكتاب أن صاحبه تمشى فيه مع كتاب القصة الحديثة فى أوروبا الذين خضعوا راغبين لعلم النفس ، فبسطوا النظريات النفسية وحللوا الانسان تحليلا دقيقاً على ضوء هذا العلم الجليل الشأن العظيم الأثر ، وعنوا عناية فائقة بالغرائز وخفايا اللاشعور ، ووفقوا وبرعوا فى سبر أغوار النفس البشرية والوصول الى أعماقها . . وتصوير أدق خلجات الفؤاد ، ورد كل ما يجيش فى صدر الانسان وعقله من عواطف وخواطر وانفعالات الى أسبابه وبواعثه الحقيقية . لقد كشف هؤلاء العلماء الأفذاذ الانسان البشرى — بعد جهل طويل — وجردوه من لباسه المستعار وأبرزوه فى ضوء النهار أمام هؤلاء المتزمتين العاجزين الذين يشوهون بنفاقهم حقائق الوجود

والشيخ عفا الله أولى قصص الكتاب الاحدى عشرة هى أوضح صورة قوية على ما قدمنا ، فيها الكثير من التحليل النفسى العميق . فهذا الرجل الذى يحب ويكبت الغريزة فيضطرب ويكاد يجن ثم يضعف أمامها ويتركها تسير فى طريقها ويقوم منها على صوت ضميره القوى الملح عليه .. الذى يأخذ عليه دائماً السبيل ويبرز أمامه جرمه مجسما على أبشع صورة هى قطعة حية من صميم الحياة وصميم النفس وصميم الواقع

و « قصيدة غرام » هى وصف رائع لحياة طبيب شاعر عاشق فيها الكثير من الصدق والحرارة والاخلاص ، وتعرف من خلال سطورها أن المؤلف كتبها بعناية وحرارة ، وأنه أفرغ فيها كل فنه ، ولولا أنه أقحم فيها مسألة الزواج إقحاماً وجرى

فى ذلك مع العرف والتفكير المصرى الساذج ليوافق هوى القراء لحاد بذلك عن الفن وانحرف عن السبيل لكانت من أروع ما كتب تيمور عن الحب وصور . وفيها إحساس صادق يعرفه المسافرون الراحلون عن أوطانهم .. وليس ذلك لأن المؤلف قام بدور البطل نفسه ، بل لأن المؤلف قام بهذه الرحلة — كما يبدو لى — ومن هنا يدرك القراء مبلغ الصدق فى التصوير عند ما يكون المؤلف جزءاً من البطل فكيف به إذا كان البطل كله ؟

ثم قصة « الشيخ علوان » هذا الرجل الذى يضرب بتقاليد المجتمع وأوضاع الناس عرض الحائط ويعيش على هامش الحياة لا يتقيد بعرف ولا يخضع لنظام ولا يتورع عن التزوج بزوجات أخيه الثلاث . . . ولا يأنف من أن يفرض على الموسرين من الشبان ضريبة ليطعم وينعم ويعيش ، كما يعيشون وينعمون ويلتذون ! . . . لو رأيت الشيخ علوانا هذا فى الطريق لصافحته بحرارة !

ومحمد عوف مجلد الكتب فى « الكسيح » هذا الرجل القوى الشخصية الجبار الجسم الذى بسط سلطانه على صبيه ، فأسره وأحاطه بالأغلال والقيود ، فما استطاع الغلام التملص أو الفكاك من الأسر حتى بعد أن بتر الترام ساق معلمه وغدا عاجزاً كسيحاً يصب لعنته على الناس أجمعين

وعادل الدرديرى فى « إفلاس » هذا الشاب الطموح الجامح القلق ، الذى ضاق ذرعاً بالمدينة وتقاليدها وسخفها ومفاسدها ونفاقها ، وحن إلى الريف فى هدوئه وبساطته وطهره . . فلما اختبره اجتواه وارتد عنه حائراً لا يدرى كيف يعيش ولا كيف يعيش هؤلاء السعداء الذين يعيشون على نسق ونظام وقانون !

وعلى هذا المنوال الحسن باقى قصص الكتاب ، وكلها من أقوى القصص المصرية الرائعة

وأبطال تيمور على العموم مرضى يحيون فى دائرة ضيقة خانقة ، ويحسون بثقل الحياة عليهم ، ومع هذا لا يتحركون ولا يفكرون فى التحرك .. لتغيير ما لهم .. أبداً خاضعين مستسلمين لمن هو أقوى منهم ، ولهذا لا تأسف على فراقهم ولا ترسل الدمع وراءهم ، وهم يخرون صرعى فى ميدان الحياة ، لأنك تشعر فى أعماق نفسك بأنهم لا يصلحون لغير الموت

وتيمور مغرم بهذا النفر المريض من الناس غراماً كبيرا ، وهذا ما كان يعيبه النقاد على تشيكوف ، وهو أنه ضيع عمره وقضى حياته فى وصف قوم مرضى لا خير فيهم ، ولكن هؤلاء المرضى هم غالبية الطبقة العامة التى يصورها المؤلف . وتشيكوف كان يصف روسيا المريضة ، وتيمور يصف مصر المريضة أيضاً.. والقصصى الواقعى ينتزع أبطاله من صميم الواقع ... فالى أن ينشأ جيل قوى جديد بدل هذا الجيل المريض العاجز سيستمر تيمور يعالج حياة هؤلاء المرضى ويسخر منهم ويتركهم صرعى عاجزين

وبعد فهذه كلمة قصيرة عن كتاب جديد يستحق عليه صاحبه التهنئة والاعجاب والتقدير .

محمود البدوى

قصص مختارة من الأدب التركى

تعريب خلف شوقى أمين الداودى

١٨١ صفحة — قطع متوسط — طبع مطبعة عيسى البابى الحلبى

فى هذا الكتاب أكثر من خمس وعشرين قصة قصيرة اختارها المعرب لطائفة من أدباء الأتراك الذين تغنى شهرتهم عن التقريظ كما يقول ! ومن بينها قصص « محاكمة الحاجة فطومة » و « النار الموقدة » — نشرت فى الرسالة — و « اعترافات سيدة » و « الكلب بوبى » . وهذه الأخيرة فيها القليل من الفن القصصى ، أما الثلاث الأولى فكل ما يمكن أن يقال عنها أنها تقرأ .

هذا ونرجو أن يوفق المترجم فى كتابه المقبل إلى ما هو أحسن من هذا وأفضل وإن كنا نرجو لكتابه هذا ما يستحق من تشجيع وتعضيد ؟

البدوى
